مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

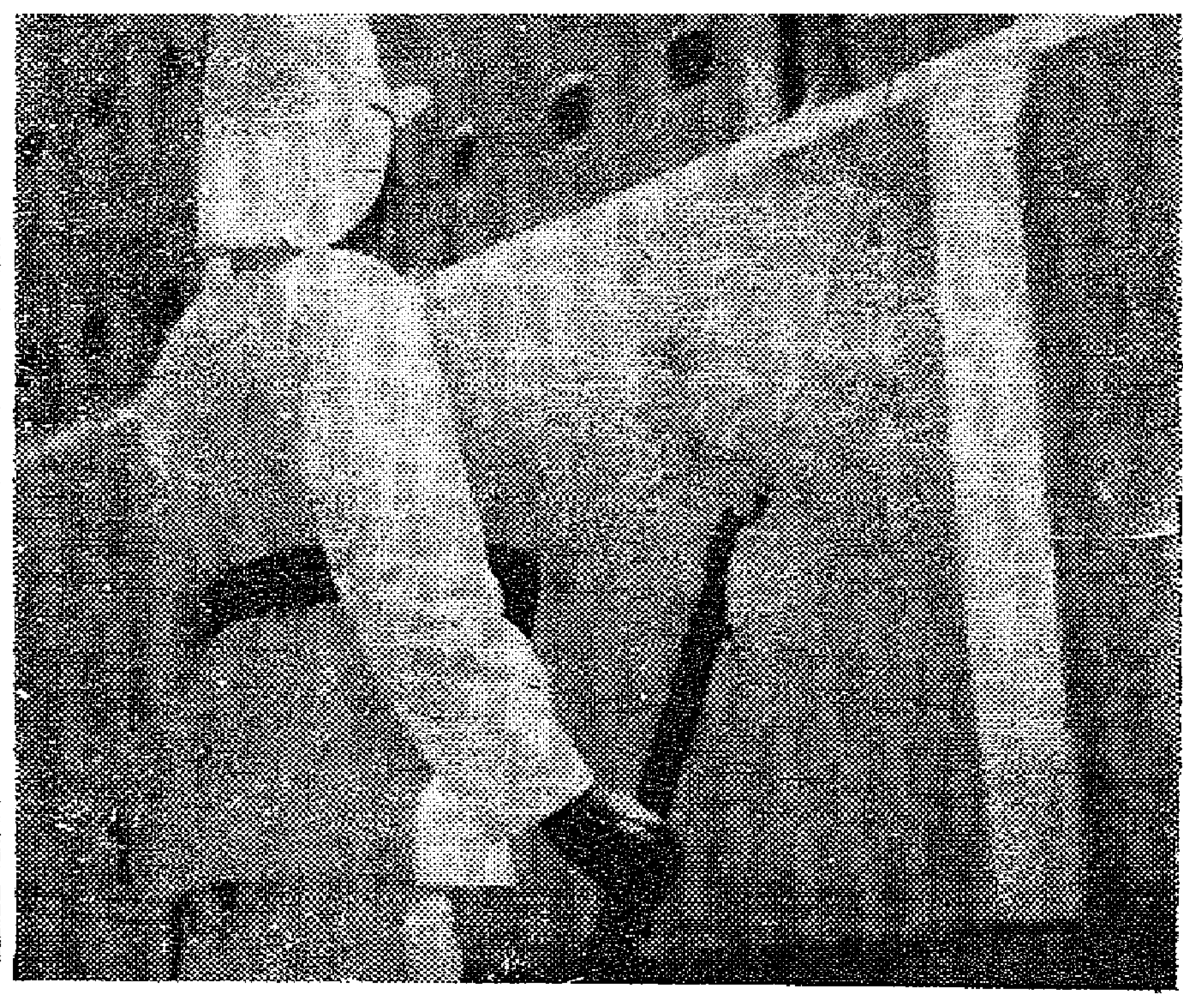
عالم السدود والقيود

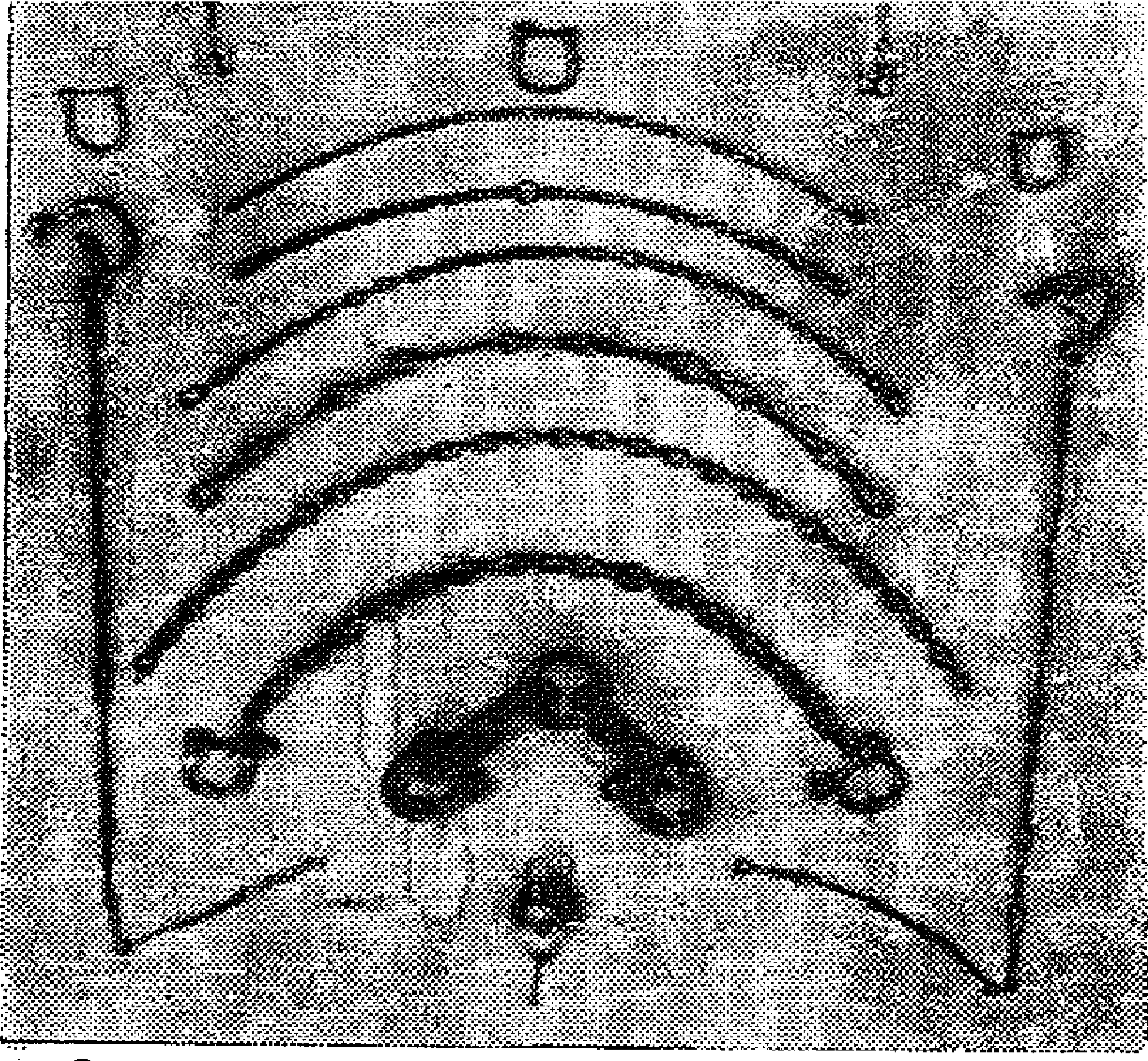
عباس محمود العقاد

١٣٥٥ — ١٩٣٧

مطبعة حجازى بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠

طبع على نفقة مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وإخوته
١٥ شارع المدابغ القاهرة







عالم السدود والقيود

كلمة تقديم

عالم السدود والقيود الآن — عندى وعند كل عابر بسبيله
هو ذلك البناء المعزول فى ناحية منزوية إلى طرف من
فى بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة ، كأنه يحس
الناس منه ونفرته من الناس ، واسمه فى سجلات الحكومة
مصر العمومى ، واسمه الشائع على الألسنة « قره ميدان »

أما يوم كنت آوى اليه ولا أرى غيره ولا أسمع بالدنيا
من وراء جدرانه فلم يكن بناء معزولا ولا كانت الناحية التى
فيها ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف ، ولكنه كان
العالم بأسره وبأرضه وسمائه ، وكان العالم الخارجى جزءا لا
به مضافا اليه ، وتلك شيمة فى النفس الانسانية أن تنقل
الكون كله إلى حيث تكون ، فالسجن وان كان عند
منزلا بغيضا يصبحون ويمسون على أمل الخلاص منه و
الاستقرار فيه ، هو مع ذلك محور العالم ماداموا بين جدرانه ،
شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران ، فلو ظهرت
السجن صحيفة كبيرة لكان لاخباره فيها مكان « الحوادث

المحلية » الظاهر فى صدور الصحف السيارة ، ولكانت أخبار العالم فيه كأخبار الحوادث الخارجية ورسائل الأقاليم ومنقولات البرق والبريد ... وإذا ارتقى بعضها الى محل الرعاية والتنويه فانما يرتقى اليه بالاضافة الى سجين من السجناء أو حادث يدور حول عقره وحجراته وخباياه

وهذه الصفحات هى خلاصة مارأيته وأحسسته وفكرت فيه يوم كنت أنزل « عالم السدود والقيود » وأشعر به ذلك الشعور ، وانظر الى العالم من ورائه ذلك النظر : لست أعنى بها أن تكون قصة وان كانت تشبه القصة فى سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست أعنى بها أن تكون بحثا فى الاصلاح الاجتماعى وان جاءت فيها اشارات لما عرض لى من وجوه ذلك الاصلاح ، ولست أعنى بها أن تكون رحلة وان كانت كالرحلة فى كل شىء إلا أنها مشاهدات فى مكان واحد ، ولا أن استقصى كل مارأيت وأحسست وان كنت أقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارىء شعوراً بما هناك ، وأنه لا فرق بينه وبين الخلاصة الا فى التفصيل والتكرير ، وانما دعوى هذه الصفحات — بل خير دعواها — أنها تتكفل للقارىء بأن يستعرض عالم السجن كما

استعرضته دون أن يقيم هناك تسعة شهور كما أقمت فيه[١] ؛

فان كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو حقها من القراءة وشفاعتها عند القراء ، وهى اذن قد اختصرت تسعة شهور طوالا فى مدى ساعات معدودات يطويها القارىء بين دفتى هذا الكتاب الصغير وهو يتفكه ولا يضيق ذرعا بالسدود والقيود ، وحسبها ذلك من نجاح

عباس محمود العقاد

---

(١) كانت مدة السجن من ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يوليه سنة ١٩٣١



المؤلف بين المحكمة والسجن

الى قره ميدان

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم احتوانا البناء المخفور الذى يعرف فى مصلحة السجون باسم « سجن مصر العمومى » ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره ميدان » أى الميدان الأسود باللغة التركية !

وخطر لى ـ وأنا أخطو الخطوة الأولى فى أرض السجن ـ قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولى باليقين بلا امتراء وكل الشك فى أمر الخروج

فهو تقرير فلسفى صحيح للواقع ! . .

أما الدخول فها هو ذا يقين لاشك فيه ، وأما الشك كل الشك فهو فى أمر الخروج متى يكون وإلى أين يكون ؟ أإلى رجعة قريبة من السجن واليه ؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم إلى عالم الأموات ؟

فى تلك اللحظة عاهدت نفسى لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكونن زيارتى الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك — أى ضريح سعد زغلول

***

ولم تقع منى هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة ، لأننى كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذى

ينتهى بافراج سريع ، ولكنى كنت لا أرى فرقاً بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها فى الحبس بحكم القضاء ، لأننى كنت أقدر أن حبس التحقيق - وإن قصر - كاف لأن يصيبنى بأكبر الضرر الذى يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التى لا تزول

وعلى توقعى الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علىّ بما يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبا اليقين فى هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، وقد لقينى مرة فاستوقفنى وقال لى : «حذاريا أستاذ ! » فقلت له باسماً : «لا يغنى الحـــذر من القدر ! » قال لى : « إنى أروى لك ما أعلم لا ما أظن : إن مقـــالاتك تراجع فى بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه مايساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحـاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة ! »

وكان فى نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر فى مؤتمر المجالس النيابية الذى عقد تلك السنة فى العاصمة الانجليزية ، وقد استخرجت جواز السفر السياسى ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوربية

التى كنت أنوى زيارتها ، ولم يبق إلا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق باخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لى أننى إذا سافرت فقد أمهد بيدى وسيلة لنفيي فى أوربا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء فى ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتى أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهى بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها . . . فعدلت عن السفر فى اللحظة الأخيرة ، وقلت إن السجن أحب من النفى الذى لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !

وفى اليوم الثانى عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدى بالمنزل ، لأن أخى كان معتقلا فى قضية « البلطة » المشهورة متهما بالتآمر على حياة رئيس الوزارة ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فاذا ضابط فى رتبة « اليوزباشى » على ما أذكر يبادرنى بالسؤال :

— هل حضرتك فلان ؟

— قلت نعم

فمد إلى ورقة من دفتر فى يده على هيئة ذكرتنى الكونت نيمور وهو يلقى القفاز فى محضر لويس الحادى عشر

قلت : « تفضل أولا فاجلس »

فتردد فى الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومى للحضور إلى مكتبه فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ، ووقعت على الدفتر — كما طلب الضابط — بأننى تسلمت الورقة . وأخذت فى إعداد الكتب التى سأقرأها فى السجن ، والأدوية التى أتعاطاها ، والملابس البيتية التى أحتاج اليها هناك . وزدت فأعددت الأغطية الصوفية التى تلزمنى للفراش والغطاء . لأننى كنت حتى تلك الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الأغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفى الفترة التى تسبق المحاكمة . ثم حضر الطاهى فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه سيحضرها لى فى السجن غداً عند اللزوم

فظهر لى أنه لم يفهم ... وأنه ينوى أن يقصد بها سجن الأجانب الذى كان أخى معتقلا فيه

فقلت له : « بل هى لى أنا فى السجن الذى سيخبرونك عنه غداً بدار النيابة !! » ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد » أنه ليس باليسير !

وذهبت فى الموعد المحدود الى دار النيابة . واستغرق

التحقيق ساعات . ثم قال لى حضرة المحقق : « إننى آسف لأننا سنضطر الى ابقائك عندنا قليلا يا استاذ ! » وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيـابة الحاضرين إلى « الحيطة الصحية » الواجبة فى هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذى يوافقنى أثناء الحبس « الاحتياطى » أكثر من سواه

وكان الاساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة .التى تردد عليها فى سنوات الثورة السياسية معظم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمين والموكلين ... واستحسنوا أن يكون الحبس فى « سجن مصر » لأن الجو فيه أوفق لى من سجن الاستئناف

وقد كان

فذهبت مع الضابط والجند فى سيارة خاصة الى « قره ميدان » وتخطيت الباب فاذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بى الضابط نحو حجرة الكتاب لتسليم ما عندى من الودائع وكتابة الأوراق التى لا بد منها لكل مسجون جديد . وما هى إلا لحظة حتى توافد الموظفون وكثردخول السجانين ينظرون الى القادم الذى سرى

بينهم نبأ قدومه . وأخذ كاتب هناك مرح ثرثارة يداعبهم واحداً بعد واحد كلما مروا به وتصنعوا سؤاله عما يضمره لهم بريد اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن ... فقد عينوك مديراً لمصلحة السجون ؟ .. » ثم يحدج ببصره كمن يستغرب سكوته . ويقول له : « الا تصدق ؟ آه ياابن الحلال . معذور . فانك فى السجن ولست فى البيمارستان . . »

أو يقول لغيره : « تعال هنا . . . قرب اذنك !! قرب أيضاً » . . . ثم يناديه بصوت يسمعه كل من فى المكان : « افرح . . . نقلوك الى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »

وهكذا فى أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت فى ذهنى موقف هملت وحفارى القبور . . . اذ يغنون وهم فى ذمار الموت !!

الليلة الأولى فى السجن

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة « الأعراف » التى تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها « أعراف » تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم . وقد كانت فى اليوم الذى سجلت فيه اسمى بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للافراج كما يسمونه فى لغة السجون !

***

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر فى هذه المرة لا مع ضابط الشرطة الذى انتهى مقامه عند الباب

فاتجه الضابط إلى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدى ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظراً عجيباً لا تألفه العين : أناساً بملابسهم العادية جالسين القرفصاء فى صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الأرجل والأيدى كما تمشى الدواب يزحفون زحفاً ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يجيبونه بصدى — لا بكلام — يقولون فيه : « هيه هيه » . . . . أما المغنى فالذى أذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت فأل جميل وايم والله ! وللفأل شأن كبير فى «نفسيات»

المسجونين كما سيرى القراء فى بعض هذه الذكريات .

***

وكان لابد لى من « فرجيل » يصاحبنى كما صاحب الشا
الايطالى « دانتى » فى طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذا
ودرجات المعذبين . . . فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء ؟ ومن هؤ
المكبون على أربع ؟ أهذا ضرب من العقاب فى مكان العقوبا
وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم
المعمم والمطربش ولابس « الطاقية » . . . ولا يلبسون كأ
السجون ؟ . .

على أننى لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الذ
ينوب فى جحيمنا عن فرجيل !

فقد كان على يسار الحجرة التى خصصت لى حجرة للصح
الظريف على أفندى شاهين رحمه الله . وكان محبوساً رهن المحا كمة
قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماع
صدقى باشا كبير الوزراء فى تلك الأيام . وكان واقفاً عند با
حجرته ينتظرنى بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر بقدومى
فلقينى مرحباً . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولا

« دائرتى الانتخابية » كانوا فى مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيوننى ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضباط والسجانين فعادوا جالسين

وعلمت بعد ذلك بهنيهة ان هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبوسون على ذمة التحقيق ممن آثروا البقاء بملابسهم العادية . وإنهم جلسوا تلك الساعة فى انتظار الخروج « للطابور » الذى هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق إلى موعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطىء النيل وطريق الأهرام !

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون فى الحجرات

***

قال دليلى أو « فرجيلى » بعد الشرح المتقدم : « وإن هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبى يوسف عليه السلام »

قلت : «وما ذاك أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه فى السجن أن يغزر ترابه ويحلى طعامه ويقصر أيامه » فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذ المكان

قلت : « يخيل إلى أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه . . لأن السجعة تقضى بذلك » !

وما لبثت فى السجن نصف ساعة حتى رأيت بعينى حرص الاقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذى تركوه

***

وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغذاء مع اهتمامى برعاية المواعيد فى تناول الوجبات

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهى أو نسى إحضاره وفهم غير ما تعبت بالأمس فى إفهامه إياه ؟

هنا ظهرت لى قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجان ، وبعد أن يسأل السجان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ،

وبعد أن يحيل البواب إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضى فى ذلك كله وقت غير قصير

ولم يكن الذنب فى هذه المرة على ذكاء « الشيخ احمد » كما توهمت لأول وهلة ، فانه قد أحضر الطعام بعد انصرافى من دار النيابة . ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمراً بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الأدوية التى معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتى الصحية وما يصلح لى من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش ! !

وفى هذه الاثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التى ينضح بها الاسفلت فى أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة الموكل بحجرتى من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذى سيغنينى عن غطائى فلم أطمئن اليه كثيراً ، ولكنى قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجساً من هذه النافذة المفتوحة على رأسى يندفع منها الهواء طول ليل الخريف . . . فما العمل فيها ؟

قال دليلى أو « فرجيلى » على افندى شاهين : « لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها » ، والتفت الى

صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض الحجرة كما يصنع فى حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة توآ ليرينى كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين افندى ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لى : « أحمد الله على أنهم لم يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل فى سدها بحال من الأحوال ، فضلا عن الظلام المطبق من الصباح إلى المساء »

قلت : « الحمد لله ! »

وهبط ظلام الليل شيئاً فشيئاً ، وعاد المسجونون قبل ذلك أفواجاً الى الحجرات ، وتعالت بينهم ضجة كضجة السوق فى يوم زحام ، ثم توالى اغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح فى الأقفال ، ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :

كم ياولد ؟ عشرة !

كم يا ولد ؟ أربعة . . . وهكذا إلى نهاية الدور ، وفى كل عنبر أربعة أدوار ، ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب فى سجله المعلق عند الباب

وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن يسمع إلا أسماء تتقاذف بها أفواه رجال ونساء ، وصرخات وأهازيج وشتائم هى عندهم فى منزلة التحيات المباركات ! ثم

سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ، وشرع اثنان فى قافية من القوافى المعروفة فى محافل الأعراس والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفى الطارىء على السجن في تلك الليلة فجعلا للصحافة قسما من هذه المساجلات المحفوظة :

— الأولاد تنادى وراك وتقول

— ايش معنى

— المؤيد ! المؤيد . . . وهو يعنى « المقيد »

***

— فوق راسك يامعلم على

— ايش معنى

— المقطم !

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع فى حضن جبل المقطم

***

— الرغيف فى سقف بيتكم

— ايش معنى

— كوكب !

***

— تطلع من هنا تقابلك فى البيت

— ايش معنى

— الحماره !

وقس على ذلك مايقال ، وما يسمع كرهاً ولا يقال

أما أنا فقد أظلمت الحجرة عندى ظلامين ، لأن النافذة المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل إلى الحجرات من فناء السجن المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا سلة الطعام فى ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الأصوات تخفت وتخفت حتى انقطعت أو كادت فى نحو الساعة التاسعة كما أنبأتنى الساعة العربية التى تدق فى مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، وإلا صيحاتهم كل نصف ساعة يطيلونها ويتنافسون فى إطالتها . فذكرتنى مبيت ليلة على حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب

التهريب

تقدمت فى علم السجن بعد يوم واحد خطوات سريعات ، وعلمت مركز الدور الذى أنا فيه — وهو الدور الخامس — بين أدوار السجن عامة ، وعلمت ماله من الشرف والوجاهة الموموقة فى تلك المدينة الصغيرة التى يسكنها نحو أربعة آلاف ، فانه هو محور حركة التهريب والحيل والمناورات

وليس التهريب فى السجون بالشىء الهين ولا بالمطلب اليسير ، لأنه هو الدفاع الوحيد الذى يتقم به المسجونون من الأسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمن فقدوا الحرية . فعليه وحده تنصب جميع الجهود والحيل والخبائث . وله وحده تجارة واسعة النطاق تجرى على معاملات خاصة ولغة خاصة ومواصلات خاصة ، لا يكفى للعلم بها يوم واحد . ولكن لا يمضى يوم واحد على السجين حتى يأخذ فى العلم ببعضها ، ثم لا يزال فى الافتنان والمزيد ماشاء الله أن يهبه من سعة الفهم والنبوغ !

والتبغ والحلوى هما عماد المهربات جميعاً فى السجون ، وهما السلعة التى يغالى بأثمانها من يطلبونها هناك حتى يبلغ ثمن اللفيفة الواحدة خمسة قروش . وثمن عود الثقاب قرشا أو أكثر ، وثمن القطعة « من الحلاوة الطحينية » كثمن اللفيفة من التبغ ، وربما زاد عليها فى بعض الأحيان .

ولكل سلعة من السلع المهربة ، بل لكل شيء من الأشياء التي يتصل بها السجناء رمز من الرموز ، يعرفه كل من في السجن ولكنهم لا يزالون مصطلحين عليه بعد انكشاف سره وافتضاح صفره . فالحارس يعلم أن « الزمارة » هي اللفيفة وأن « العين » هي النار من ثقاب أوغير ثقاب ، وأن «العربة» هي الحارس نفسه . وأن السجين الذي يقول لزميله : « حاسب العربة فايتة » انما يعني أن الحارس في الطريق . . . ولكن السجناء مع هذا قد ألفوا الكناية والتخفي والزوغان فنسوا الكلمات الواضحة وصمدوا على هذه المصطلحات والرموز

والدور الخامس فيه سجناء المحاكم المختلطة أو « الحمايات » كما يسمونهم هناك . وهم مميزون بطعام غير طعام السجن يشتمل على الخضر واللحم والفاكهة والحلوى كل يوم ، ولهم في الافطار كوب كبير من الشاي وبيضتان . وفي المساء جبن أو ماشابهه من طعام محرم على سائر المسجونين

وفي الدور الخامس قسم آخر من سكان السجن المجدودين في نظر الزملاء الآخرين ، وهو قسم المحبوسين على ذمة التحقيق الذين يسمح لهم « النظام » بالطعام واللباس من المنازل ، فيصل اليهم كل يوم دجاج ولحوم وخضر مطبوخة وفاكهة وحلوى

وألوان من « الثمرات » المحرمة المشتهاة فى ذلك الجحيم

وهؤلاء يشتاقون « التبغ » إن كانوا من المدخنين فيجدون فى « العنبر » من يشتاقون الحلوى واللحوم ويملكون اللفائف أو « الزمامير » للبيع والمقايضة ، فتنعقد الصفقات وتظهر البراعة والافتنان فى التوصيل والتسليم

على أن البيع لا يجرى كله بالمقايضة ولا غنى فيه عن « النقد » فى كثير من الأحيان ، أما حمل النقد فممنوع فى نظام السجن ولكن هل يمنع بلع النقد واحتواؤه فى الأجواف ؟ هيهات ! ومن هنا كانت العملة المختارة فى السجن هى قطعة القرشين الفضية وقطعة « نصف الجنيه » الذهبية ، وما عدا ذلك من القطع فهو شذوذ يتوقف عليه شذوذ المعدات والأمعاء ، ومنها ما تصل طاقته فى الشذوذ إلى ربع ريال ، وقد تزيد على ما يقال !

***

ولم تمض علىّ ليلة فى السجن حتى عرف الخبثاء المتربصون أن هناك فرصة للاستغلال لا ينبغى أن تضيع ، فاستغلوا جهلى بكل ما استطاعوا من وسيلة وحيلة ، وكانوا موفقين كل التوفيق

جاءنى خادم الحجرة فى الصباح الأول بعد الأفطار وأنا لا أعلم بطبيعة الحال شيئاً عن المحظورات والمباحات وأولها

إعطاء الطعام والفاكهة لخدام الحجرات ، فأعطيته كل ما بقى من الموز والفاكهة فى السلة ، ففرح بها وتهلل وجهه وأسرع فخبأ بعضها تحت لبدته ولف بعضها فى سرواله ، وتسلل من الحجرة إلى حيث لا أعلم . فأدهشنى أنه لم يأكل ما أعطيت وظننت أنه يخفيه عن أصحابه حتى ينفرد بأكله فى ناحية ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه باع معظمه بزمارة . . . ! ! وقنع منه بأكل القليل

وجاءنى بعد ذلك فسألنى :

— هل تعبت كثيراً من البق والبراغيث ؟

قلت :

— كلا ! لم أشعر لها بوجود

قال :

— لكن هذه « الملاعين » ستظهر قريباً عند ما تشم « نفس الناس » وتزعجك كثيراً . . . . ومن العجيب أنها لم تظهر أمس والحجرة مهجورة والأغطية مخزونة ، فلابد من تطهير السرير وحدائد النافذة والباب للقضاء عليها . . .

وطفق الخبيث يهول لى فى فتك هذه الحشرات وألاعيبها فى الاختفاء والظهور كأنها تحاور السجناء وتلاعبهم لعبة « الاستخفاء » عن عمد وتدبير

وخشيت أن يكون ماقال حقاً ، لأن المزعجات كلها مسلطة على السجناء فى اليقظة والرقاد

فقلت :

— وكيف نقضى عليها ونستريح منها ؟

قال :

— بالنار . . اطلب سعادتك «موقد الغاز» من السجان وهو لا يضن به على مثلك ، وقل له إنك تريده لتطهير الحجرة من البق والبراغيث

فشكرت له إخلاصه ، وانتظرت حتى جاء فى السجان فطلبت منه « الموقد » وذكرت له الغرض منه ، فلم يضن به كما قال الرجل . . . . بيد أنى علمت بعد لحظات قليلة حقيقة ذلك الاخلاص الذى شكرت صاحبنا عليه !

فما هو إلا أن تسلم الموقد مشعلا حتى أسرع قبل كل شىء فأشعل منه لفة من خيوط الصوف ونظر إلى الدور الأعلى — وهو الدور السادس — فاذا بلبدة تسقط على مقربة منه كأنها سقطت عفواً بغير طلب ، وإذا به يدس فيها اللفة المشعلة ويطويها طياً محكما ويقذف بها حيث سقطت ، وهو يقول فى صوت بين الهمس والنداء : « خذ التليفون ؟ »

والتليفون كما علمت بعد ذلك هو الخيط المهرب على هذا المنوال لاشعال الزمامير !

قلت : « يا شيطان ؟ أهذا هو البق الذى تريد إحراقه » فحاول أن يتمادى فى الكتمان والزوغان . ولكنه ضحك على الرغم منه وأفصح لى بسر هذه « التهريبة » التى كانوا لا يظفرون بها إلا فى الفلتات . وقال لى إنهم كثيرا مايشعلون خيط الصوف على طريقة قدح الزناد ، ثم يقذفون به فى الحجرة المجاورة فيتلقاه أحد السجناء على ذراعه الممدودة خارج « شعاع » الباب ثم يلقى به الى جاره حتى يدور فى الدور كله . ولذلك سموا هذا الخيط بالتليفون !

* * *

وماذا يصنع المدخن الذى يود التدخين لامحالة ومعدته خاوية من « ذات القرشين » أو من الزرار كما يسمون تلك القطعة فى لغة الاصطلاح ؟

أتراه يقلع عن تلك العادة ؟ كلا ذلك آخر مايفكر فيه ، بل ذلك حديث لا يفكر فيه آخراً ولا أولا فيما يظهر . وإنما يعتمد على الثقة ومعاملات القرض والتسليف حتى يفرجها الله . . . . وأنها لمعاملات معترف بها تسرى بين السجناء سريانها بين

الطلقاء . فلكل سجين « حسابه الجارى » الذى يليق بسمعته المالية وكفاءته « السجنية » . وهى على نقيض الكفاءة التى توجب الثقة فى معاملات المصارف والمتاجر الخارجية . لأن أسوأ الناس سلوكا وأطولهم إقامة فى السجن هو أحقهم بزيادة الاعتماد وحسن السمعة . وأما البرىء أو المحكوم عليه فى أمر يسير فذلك فى حكم المفلس المعدم الذى لا يوثق به فى التسليف من هنا إلى هناك !

ولا أزال أذكر صرخة الفزع التى سمعتها من أحد تجار التبغ المشهورين حين أبلغوه أن مدينه « فلاناً » قد برىء فى محكمة الاستئناف بعد أن كان ميؤساً من براءته وكان هو أول اليائسين المتفائلين ببقائه . . . فقد صاح التاجر فيمن أبلغوه شامتين مستهزئين : « ويحكم ماذا تقولون ؟ هل برأوه النذل الوضيع ؟ » ثم عاد فاستسلم وأناب وقال لمن حوله وكأنه يحدث نفسه : « ولكن الحق علىّ أنا المغفل الذى أثق بمثل هذا الكاركى الحقير ! » وكان الأولى به أن يقول : « هذا البرىء الحقير » بدلا من كلمة الكاركى التى هى عندهم اصطلاح على من دخل السجن محكوماً عليه لأول مرة . ولعلهم أخذوها من كلمة « الكاكى » الذى يشبه لونه لون العلامة الموضوعة على لبدة هذه الفئة من فئات المسجونين

وربما تبادر الى الذهن أن ديون السجن عرضة للغدر والاهتضام إذ كان صاحبها لا يجسر على المطالبة بها خشية العقاب إذا هو أقر على نفسه بالتهريب والاتجار بالمحظورات ، ولكن الحقيقة أن ديون السجن كديون الشرف عند جماعة المقامرين هى أحق الديون بالضياع وهى مع ذلك أبعد الديون عن الضياع . ولا شك أن الدائن يستميت فى رد حقه على قدر حاجته إلى الاستماتة والمجازفة . وهو يحتاج إلى الاستماتة والمجازفة كلما قل اعتماده على المطالبة المشروعة والأصول المتفق عليها . فيذهب فى طلب الدين المهرب إلى أقصى حدود العنف والارهاب ويلقى فى روع غريمه أن رد المال أهون من الاصابة التى لامفر منها اذا هو تذرع بالغدر والمحال . وربما استنكر « الرأى العام » بين هؤلاء اللصوص أن يأكل المدين مال الدائن فى غيابة السجون وهم جميعا لا يستنكرون الخطف والسطو والاختلاس فى فضاء الله الرحيب . لأنهم يحتاجون فى السجن الى تجارة المهربات ويعلمون انها تجارة قوامها الثقة والسداد ، وان كان هذا لا يمنعهم ان يعجبوا « بالشاطر » الناجح الذى يستدين ثم يتمكن من الزوغان !

ومن هؤلاء الأشقياء من يعجز عن معاملة التسليف فيهجم على التزييف وهو يتوقع ما وراءه من الخطر والعقوبة القاصمة

رأيت من هؤلاء اثنين جاءبهما أحد السجانين الى مكتب السجان الأول فى انتظار عرضهما على حضرة المأمور . وكنت أجلس أثناء الرياضة فى فناء السجن بين المكتبين المتقابلين

فبسط لى السجان المصاحب لهما يده وقال : « انظر ! هذا من تزييف هؤلاء المجرمين » وعد أمامى ثمانى عشرة قطعةمن ذات القرشين صنعها ذانك السجينان فى المعمل واتقنا صنعها جد الاتقان . مع السرعة وقلة الأدوات وشدة الحذرمن الرقباء ، فلا تختلف القطعة الصحيحة إلا بالرنين وهو محك مأمون فى داخـــل السجون . . . ومن ذا الذى « يرن » الزرار فى لحظة التهريب ؟ فالشياطين يعلمون أن صاحب البضاعة سرعان مايتناول القطعة بيده حتى يقذف بهـا إلى معدته . . . ثم يختلط الصحيح بالزائف فى ذلك الـكيس الحى وتختفى الشبهة باختفاء القطعة بين أحشاء التاجر المخدوع

قال أحدهما لصاحبه : « فيها خمس سنوات يافلان »

فاضطرب صاحبه . وقال : « قسم ونصيب . . . . وكل هذا من أجل نفسين لا طلعا ولا نزلا »

ثم التفت نحوى كالمستغيث سائلا :

أصحيح أن الحـكاية فيها خمس سنوات ؟

قلت :

— لا أظن

فنظر إلىّ الأول نظرة يتنازعها ادعاء العلم بأحوال السجون ولهفة الخلاص . وقال لى كأنه يتحدى ويستزيد من الاطمئنان فى وقت واحد :

— وكيف هذا وقت رأيت بعينى جماعة عوقبوا بالسجن خمس سنوات لأنهم زيفوا النقود ؟

فطاب لى أن أداعب مهارة هذين الشيطانين وأخذت أشرح لهما ما أعتقد من الفارق بين التزييف فى الخارج والتزييف فى داخل السجن ، وقلت لهما إن المزيف فى الخارج يختلس حق الحكومة وحق الناس ، ولكن المزيف هنا يختلس ماهو مختلس بطبيعته ومستحق للمصادرة عند ضبطه ، وليس على هذا عقوبة أكثر من عشرين أو ثلاثين جلدة ، وأيام أو أسابيع من سجن الانفراد والخبز القفار

قال :

— لتكن مائة جلدة ، وانطلق يدعو لى بالطمأنينة وارتقاء المراتب والصحة والعافية وكل شىء . . .

قلت :

— هداك الله ياصاح . ولكن هذه الدعوات الصالحات هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟ !

القراءة

يسمح النظام فى « قره ميدان » بالقراءة للمحجوزين على ذمة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط ، وتنحصر القراءة المسموح بها فى الكتب الدينية والعلمية والأدبية التى « لاتخل بالنظام » ماعدا الروايات وكتب التسلية ، ويرجع الأمر فى التفريق بين ماهو جائز من المقروءات وما هو محظور — إلى رأى الموظف « الكتابى » الذى يتفق وجوده ساعة وصول الكتاب ، لأن الموظفين العسكريين يترفعون عن الخوض فى هذه المسائل « الملكية » ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم من القائها على كاهل حملة الأقلام ، ولكن ما الحكم فى اللغات التى لايعرفها الموظف الحاضر ؟ وما الحكم فى الروايات التى هى من صميم الأدب ؟ وما الحكم فى الكتب التى لا يلوح عليها أنها روايات إلا لمن قرأها وأحاط بتراجم أصحابها ؟ وما الحكم فيما يخالف النظام من التصانيف اذا كان المراقب الفاضل لم يسمع قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين ، ولا مانع عنده من أجازة كل تأليف لاخوان هذا الطراز ؟

الحكم فى ذلك كله للمصادفة والمزاج ، فكثيراً ما يتوغل فى السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعى وكل نظام فى الوجود ، وكثيراً ما ينتظر الكتاب الاذن بعبور الجدران أياماً وأسابيع حتى يرسل الى الادارة العامة ويعثر

هناك على من يعرف الألمانية أو الأوردية أو الأرمنية وماشابهما اذا كان مكتوباً باحدى هذه اللغات

وقد وقع اختيارى عنـــد ما وصل إلىّ اعلان دعوة التحقيق على كتابين فى التاريخ والأدب ، وهما الطبعة الجديدة من مختصر تاريخ العالم للمصلح الانجليزى « ه . ج ولز » ، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسى « اندريه موروا » مترجمة الى الانجليزية ، فأفردتهما جانباً ووضعت علامات على الكتب الأخرى التى سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين

ولم يكن اختياراً فى الحقيقة ذلك الذى هدانى الى اختصاص تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة فى أيام السجن الأولى ، ولكن الكتابين كانا قد وصلا إلىّ فى البريد الأخير فوجدت الفرصة سانحة للفراغ منهما فى هذه العزلة المقسورة !

على أننى لو تعمدت الاختيار المناسب « لمقتضى الحال » كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه الوتيرة ، فليس أحب إلى الانسان من أن يعوض حركة الجسم إذا فقدها بحركة الخيال ، وليس أقرب إلى المعقول من أن يلتمس فى عالم القراءة ما يعز عليه فى عالم الواقع ، وأى قراءة أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة

الانسانية باسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها إلى يومها الحاضر ؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامحاً بين رحلات الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة ؟

فقد أحسن القدر الاختيار لى فيما أرى ! . . ومن قبل ذلك بأعوام أذكر أنى كنت أنتق ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء ، فكانت يدى تتجه إلى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة من الاختلاف فى الموضوع والوجهة ، وأعنى بهما الكتب التى تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التى فيها بحث عما وراء الطبيعة واستكناه لحقائق الأرواح وعالم الغيب ، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين ؟ وما أبعد المسافة بين النوعين ؟ ولكن الصلة التى تجمع بينهما أقربَ الجمع بعد ذلك هى « التعويض » النفسى الذى يشتركان فيه ، فكلاهما كفيل بتعويض المريض الذى يحس من نفسه أنه سيفقد الحياة ، وانما يعوضانه فى عالم الخيال والتفكير . لأن حياته الواقعية تريه مقدار الحاجة إلى عالم الحس كما تريه مقدار الحاجة إلى عالم الروح

***

على أنى لم ألبث أن عرفت أن للكتاب فى السجن فائدة غير فائدة القراءة ، وربما كانت فائدته الأخرى هى المقصودة

فى كثير من الأحيان عند كثير من المسجونين ، ولا سيما المصاحف وكتب الدين على اختلاف الأديان .

أما هذه الفائدة الأخرى فهى الاستخارة .. ! وهى أن يفتح القارىء الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر ويقرأ مايصادفه فى السطر السابع ، فاذا هو المصير الذى ينتظره و « القرعة » التى تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة . فاذا كان الكتاب مصحفاً أو سفراً دينياً كائناً ما كان فذاك اذن أشبه بالوحى السماوى وصوت النذير من عند الله

ولا أظن أحداً من القراء لم يسمع قائلا يقول فى دهشة وغضب : « أتريد أن أغالط نفسى ؟ . . . » كأن مغالطة النفس أبعد الأشياء ! وكأن الانسان لا يغالطه إلا الآخرون ولا يغالط هو إلا الآخرين

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد أو اللهفة الشديدة لترين الانسان — كل انسان — أن المغالطة الكبرى إنما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين بين الأصدقاء والأعداء ، فهو يصدق الرجاء أو العزاء لأنه يحتاج إلى تصديقه ، لا لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التى ترجحه وتقويه ، والمقياس الوحيد لصدق العزاء فى ساعة الضيق انه

ضرورى لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان ، ولهذا يغتبط المسجونون بالبشارة التى تأتى من الاستخارة كأنها خبر وثيق لا كذب فيه ، بل يغتبطون بها لأنها خبر لا يضير فيه الكذب ما دام يسر ، ولا يفتقر إلى تمحيص الغد مادام مقبولا فى حينه

وقد كان بعض المسجونين الذين يلقونني عند الحلاق ويرونني فى غفلة من الحراس يحدثونني ببشائر « الاستخارة » والأحلام كأنهم يتحدثون « بالأسانيد » والبينات ، فاشكر لهم مودتهم ولا أحب ان أزعزع فيهم ركناً من أركان العزاء ، وما أوهى أركان العزاء جميعاً عند بنى الانسان !

كان باب الحجرة عندى مفتوحاً للتنظيف فى صباح يوم ، فجاءنى زميلى ودليلى وجارى السيد على شاهين يحمل مصحفه ويعلمنى هذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران السجون ، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ فى الاستخارة لنفسه وانفتحت له إحدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف فقرأ فى السطر السابع : « . . . . سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم . قال هى راودتنى »

فانتفض صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه ! وحق له أن ينتفض لأن المصادفة فى الحقيقة كانت من المدهشات التى

قلما تتفق فى هذه الاستخارات ، إذ ليس فى المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذى سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية . ولكن ما أعمق معين المغالطة فى نفس الانسان كلما احتاج إلى الرجاء والعزاء ! . فان صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضى بمتابعة المعنى إلى تمامه ، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل فى ختام الصفحة التالية إلى الآية التى تقول : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم »

وكنت أقلب فى كتاب « تاريخ العالم » فقال لى صاحبى : « ألا تستخير عندك ؟ »

قلت : « وهل تصلح الكتب الافرنجية للاستخارة ؟ »

قال : « جرب ! »

ولا أظن شيئاً يبعث الأسى على تاريخ بنى الانسان المساكين كما تبعثه الاستخارة فى كتاب تاريخ عام . فما أذكر أننا وقفنا على سطر إلا وكان فيه عراك أو نكبة أو معنى محزن إن كان فيه معنى على الاطلاق ، وفى إحدى هذه الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم رصاص كان مع السيد

على شاهين ، ولم أكن أنا أحمل قلما ولا رضيت أن يحمل إلىّ شىء من المهربات ، فاذا السطر السابع منها هكذا :

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and Allah is aware of what yaou do)

وتمـام هذه الآية من القرآن فى سورة آل عمران : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم لكى لاتحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم .... »

* * *

وفى اليوم التالى لدخولى السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لى فى شراء الصحف التى أريدها على حسابى ، فتعبنا جداً فى إحضار صحف المساء قبل الغروب واغلاق الحجرات — وهى توزع فى ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة — لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ « مضمونة البيع » فالأولى به إذن أن يبدأ ببيع النسخ « غير المضمونة » !! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر الى السجن وفى ضوء النهار بقية ، وأصر على ذلك مع تنبيهه مرة بعد أخرى ، وان كان هذا لايمنعه أن يلقانى بالدعاء والابتهال .

كلما خرجت من السجن وكلما عدت اليـــه فى طريق التحقيق والمحاكمة !

وربما علم بعض حضرات القراء أننى شرعت فى أيام سجنى أتعلم اللغة الفرنسية ، وهى مصادفة من المصادفات أيضاً لم تكن تجول فى نيتى عند مادخلت السجن واخترت كتب القراءة التى تقدمت الاشارة اليها ، وانما فكرت فى ذلك على أثر تحية وجيزة لقيتها من رجل ايطالى مهاجر وضعوه فى الحبس ريثما يتثبتون من « جنسيته » فى الوكالة الايطالية . فقد اقترب منى هذا الرجل يوما ورفع قبعته محييا وهو يقول بالفرنسية : « ياحضرة النائب . . » ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه قرأ أخبار قضيتى وأنه يسره أن يرانى ويبلغنى تحياته . فحاولت أن أفهمه جوابى بالانجليزية فلم يفهم إلا قليلا لا يزيد على مافهمت منه ! فسألت نفسى : وما بالى لاأتعلم الفرنسية فى هذه الفرصة؟ أمامى الآن نحو خمسة اشهر وهى مدة كافية للالمام بالمبادىء ، ولم يكن وقت التحقيق صالحا للشروع فى هذا البرنامج لأنه وقت غير محدود . . فلنبدأ الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت لمحدود

***

وأنت أيها القارىء — وقاك الله — لا تعلم كما علمت أنا في السجن أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول « قلم » إلى حجرة سجين باذن من مصلحة السجون ، فان الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لي ان يكتب عريضة لادارة السجن وأن ترفع هذه العريضة إلى مدير المصلحة وأن ترفع بعد ذلك إلى كل من وزير الداخلية ووزير الحقانية ؛ وهناك يصدر الأمر بالرفض أو القبول اذا شملته رعاية خاصة ، والأرجح أن يرفض لغير سبب إلا ان الرفض مباح للرئيس وانه في معظم الأحيان شرط من شروط الرئاسة

ولم كل هذا العناء ؟

نعم إن القلم ضروري لتعليم الأسطر كما تعودت في دراساتي ومطالعاتي ؛ ثم تدوين الكلمات التي تراجع وتحفظ ، ولكني استعضت منه بالظفر أحزّ به العلامة في الهامش وفي خلال السطور ، وبثني الصفحات في مواضع المراجعة والاعادة . واستغنيت عن كتابة العرائض التي يقول فيها جبرائيل لميكائيل وميكائيل لاسرافيل واسرافيل لعزرائيل ، ثم لا تنتهي بعد ذلك إلى كثير ولا قليل

ومن طرائف المقترحات التي سمعتها وأنا أبدأ دروس الفرنسية الأولى أن أدع هذه اللغة وأعد نفسي — بدرس الفقه والشريعة والتصوف — لأن أكون إماماً وواعظاً في الأقطار

الاسلامية ؛ وأن أفطن للحكمة الالهية التى قيضت لى محنة السجن كما فطن لها صاحب الاقتراح الملهم بظهر الغيب

وجعل صاحبي — أعنى صاحب الاقتراح — يسأل ثم يجيب نفسه

— هل تستحق أنت بلاء السجن ؟ لا ولا ريب ! . .

إذن لا يظلم ربك أحداً ! وماأراد ربك بسجنك إلا نفعك ونفع المسلمين بك ، وأن لا تكون غاية سعيك خدمة الوطنية المصرية دون الجامعة الاسلاميـــة . فدع الفرنسية واقرأ فى الأشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين وتجرد لما جردك له الله ، وثق أنك هنا لأمر عظيم

وهكذا كان يحاورنى من حين الى حين رسول تلك البشارة المغموطة ، والهداية التى تخلق الهداة على الرغم منهم ! ورسولنا هذا هو هندى متورع محبوس فى قسم الحمايات لتهمة اختلاس فى تجارة كبيرة ينكرها أشد الانكار ، ويزعم أن عداوته للحكومة فى الحركة الهندية هى علة تلفيق التهمة عليه ، وكان لا ينقطع عن كتب التفسيروالأحاديث يقرأها بالعربية فيفهمها بعض الفهم ولكنه يتكلمالانجليزية إذا أراد التبسط فىالحديث

وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على ذلك الامام الذىهو واثق انهامامنتظر ، وواثق كذلك أنهقد ضيع بيديهالامامةالتىأعده لهاالقدر ، وماأعجبالجمعبين الثقتين !

المنع والترخيص

كل شيء فى السجن ممنوع حتى يصدر الأمر باباحته والغاء منعه فالأصل فى السجن « المنع » لغير سبب وبغير تفسير ، فاذا أبيح عمل من الأعمال وأجيز أمر من الأمور ، فذاك الذى يحتاج إلى سبب ويحتاج بعد ذلك إلى ترخيص واستئذان

وأن هذه القاعدة وحدها لكافية لأن تجعل السجن سجوناً كثيرة بعضها أضيق وأثقل من بعض . ولكنها مع ذلك رحمة سماوية إذا قيست إلى الطريقة التى ينفذونها بها حرفاً حرفا ومرة مرة ، بغير تصرف ولا قياس ولا مراعاة للنظائر والمناسبات

فاذا أبيح الشيء مرة فانما يباح فى حالة لا تسرى إلى غيرها وفى وقت لا يمتد إلى مابعده ، فلا يمكن أن تتكرر الاباحة ولو تكررت الدواعى والمناسبات ، ولا يمكن أن يباح الشيء الذى يشبهه تمام المشابهة ويجرى مجراه فى وصفه ونحواه ذهاباً مع القياس والاستطراد . . . كلا ! بل كل شيء مباح بحرفه ووسمه ووقته وشخص المقصود به ، فاذا تغير الحرف أو الوسم أو الوقت أو الشخص فقد بطلت الاباحة وعاد المنع كما كان ..!

وبعض الأمثلة غنى عن الاسهاب فى هذا الباب

كان قوام طعامى خارج السجن الفاكهة والخضار الطازج ولاسيما فى الصباح والمساء ، وقد ميزت من الخضار الجرجير

والخس ، ومن الفاكهة الكمثرى الايطالية والجوافة ، لأن هذه الفاكهة تشتمل على خلايا وبذور تساعد الهضم بخشونتها مساعدة لا تقوم بها الثمار الأخرى.

فأما الفاكهة فقد فصلت فيها مصلحة السجون من قديم عهدها الأول فصل أنبياء بنى إسرائيل فى المباح والمحظور من الطعام والشراب . فهذا حلال وهذا حرام ، ولا نقض بعد ذلك ولا إبرام . وليست الكمثرى مما يسمح به ذلك « الحاخام » ... أما الجوافة فلم يحن أوانها من العام !

واختلف الحال فى الخضار فلم يتنزل فى أمره تحريم كذلك التحريم بين آيات الكتاب العظيم ، ولكن كهان الهيكل قد حجروا على ما أباح الكتاب واسعاً فلبث « المنع » الأصيل فى مكانه القديم لا يتراجع عنه ولا يريم !

كتبت اللجنة الطبية التى تقرر لى أصناف طعامى كل أسبوعين هذه العبارة فى تذكرتى الصحية : « يصرف له خضار كالفجل والجرجير . . »

فمضت أيام وأنا لا أرى غير الفجل فى كل غداء ، والفجل ، وقاك الله ، صنف يحتمله الهضم الضعيف يوماً ثم لا بد له من أسبوع على الأقل لينساه ويجازف مرة أخرى بالرجوع إليه .

فأما الفجل وحده ولا خضار غيره مطبوخاً أو نيئاً في كل غداء فذاك بلاء للهضم الضعيف وليس بغذاء أو دواء!

قلت : « فأين الجرجير ؟ »

قالوا : « إن الساعي الذي يذهب في طلب هذه الأصناف لا يجده في السوق ولا يسعه أن ينتظره حتى يتلقى باعة الباعة في الطريق »

قلت : « وما باله لا يشترى الخس مثلا أو الكرات ؟ »

قالوا : « إن اللجنة الطبية لم تسمح بغير الفجل والجرجير »

قلت : « بل سمحت بكل خضار لأنها لم تذكر الفجل والجرجير إلا على سبيل التمثيل »

قالوا : « لا بد من سؤالها والاستئذان منها ، لأنها لو شاءت لذكرت أسماء الأصناف الأخرى ولم تقصر الإشارة على هذين الصنفين »

وبديه أن السجن مدرسة كما يقولون ، ولكنه ليس بالمدرسة التي ألقى فيها درسا في معنى التمثيل بالكاف أو في معنى التخصيص والتعميم ! . .

وسمحت لى اللجنة باللبن فى طعام الافطار فكأنها قد سمحت لى بكوب فارغ لا شىء فيه ، لأن اللبن الذى يصل إلىّ فى الصباح الباكر لا يكون صالحاً للغذاء ، ولا ينبغى أن يصلح لغير الاهراق قبل ذلك بساعات

وبيان ذلك أن اللبن الذى يجلبه المتعهد إلى مستشفى السجن إنما « يسلّم » فى الساعة العاشرة من كل صباح

والساعة العاشرة موعد حسن لمن يتناولون اللبن فى الغداء ، وموعد لا بأس به لمن يتناولونه فى العشاء ، على شريطة أن يكون محلوباً فى صباح يومه ولا يكون « بائتاً » متخلفاً من اليوم الذى قبله

فأما فى طعام الافطار فأين هو المستشفى الذى يطعم مرضاه لبناً مضت عليه أربع وعشرون ساعة فى الصيف أو فى الشتاء ؟

وخطر لوكيل السجن الذى خاطبته فى هذه المسألة عند مروره فى ساعة الرياضة أن « يتصرف » فيها بعض التصرف على خلاف القاعدة المرعية هناك ، فامر رئيس الممرضين أن يضع المقدار اللازم لى من اللبن فى « الثلاجة » من ساعة وصوله حتى ساعة تقديمه فى صباح اليوم التالى ، عسى أن يمنع ذلك فساده وتخثره ويبقيه سائغاً سليما حتى موعد الافطار

لـكن رئيس الممرضين ذهب إلى المأمور يستأذنه كما هى العادة فى كل شىء، فانـكر المأمور هذا الحل « المرطق » لأنه بدعة عجيبة لم يتنزل بهـا الوحى فى « الناموس » القديم، ووجب أن يهرق اللبن هدراً وأن يلغى الافطار عليه حتى تعود اللجنة الطبية إلى فحص جديد

وليس يخفى أن « النظام » لا يمكن أن يمنع وضع اللبن فى ثلاجة المعمل الملحق بالمستشفى أو فى أى مكان يحتويه، ولا يمكن أن يمنع صيانة اللبن من الفساد بغير كلفة ولا نفقة زائدة مادام الثلج لا ينقطع عن المعمل فى صيف ولا شتاء، بل صيانة اللبن أنفع للمستشفى وأقل نفقة عليه من شراء لبن جديد لى فى الصباح الباكر قبل حضور الأطباء

ولـكن « الناموس » لم ينص بالحرف والوصف على قنينة من اللبن توضع فى ثلاجة لأجل سجين يسمى عباس العقاد فهو قد نص إذن على المنع والتحريم !!

***

على أن الأخطر والأغرب فى باب الضحك والفكاهة، لولا مافيه من مساس بالحياة، هو قصة انتقالى إلى المستشفى أو انتقال المستشفى إلىّ، ثم ما كان بعد ذلك من فصل حكيم فى هذه المشكلة العضال التى ليس لها الا ذكاء سليمان بن داود

وسيعجب القارىء من «عنوان» هذه القصة كما أسلفته لأنه لن يتخيل أن هناك مشكلة تقوم بين مريض ومستشفى لينتقل المريض إلى المستشفى أو ينتقل المستشفى الى المريض

ولكنه إذا عرف القصة على جليتها لم يستطع أن يتخذ لها عنواناً أصدق من ذلك العنوان ، فهى فى الواقع خلاف بينى وبين المستشفى قد انتهى — بحكمة سليمانية — على أن ينتقل هو إلىّ بدلا من انتقالى أنا إليه

وجلية القصة أن الأطباء قرروا بعد أيام من دخولى السجن وجوب وضعى فى مستشفاه ومعاملتى فى اختيار الطعام والفراش وأوقات الرياضة معاملة المرضى

ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت إلى المستشفى كما يقضى العقل و «النظام» ؟

كلا ! وإنما الذى حدث أنهم اعتبروا الحجرة التى أنا فيها ملحقة بالمستشفى وانفض الاشكال ! !

وقد أبلغونى ذلك الحل الحكيم فاضحكنى على الرغم من مضض السجن وتعب الجسم وسوء العاقبة ، وأصبحت أعذر ذلك العطار الذى حسب أنه استراح من النمل بكتابة كلمة الفلفل

على حق السكر . . . . فان هذه الحيلة العطارية ليست باغرب من حيلة السادة المشرفين على السجون الذين كتبوا اسم المستشفى على حجرة العنبر ، فاصبحت بهذه المعجزة السحرية مكاناً صالحاً للعلاج ، مشرقاً بالضياء ، متوهجاً بحرارة الشمس ، معزولا من الرطوبة ! ! . . ولا أحسب الفرق عظيما بين من يحاول تضليل العناصر الطبيعية بكلمة على حُق كبير ، ومن يحاول تضليل النمل بكلمة على حُق صغير . . . . فهما ولا ريب فى البراعة سواء

ولما قلت لهم إن المستشفى فيه حجرة تدخلها الشمس ويتخللها الهواء وتصلح للاقامة فيها قالوا : « وكيف تقيم فيها ؟ أليست فيها دواليب الملابس ؟ »

قلت : « وهل يستحيل نقل هذه الدواليب ؟ أليست صحة مريض أولى بمكان فى المستشفى من دولاب؟ »

فدار البحث أياماً بين السجن والادارة العامة والأطباء والنيابة وغيرها من المراجع التى لا أدريها ، ثم ظهر بعد طول البحث وشدة التنقيب أن الدولاب الأصيل أولى بمكانه فى المستشفى من الانسان الطارىء الغريب !

وغاية ما صنعوه بعد جهد جهيد أنهم نقلونى من الحجرة الأولى إلى حجرة أخرى فى طرف العنبر مزيتها على زميلتها

أن الشمس تنالها — فى الظاهر — من حائطين اثنين بدلا من حائط واحد

ولما انتقلت إليها واقترحت عليهم أن يفتحوا فى الحائط الآخر كوة صغيرة تنفذ منها الشمس إلى داخل الحجرة ، حسبتُ من دهشتهم واستغرابهم أننى طلبت إليهم أن يفتحوا ثلمة فى الدين أو ثلمة فى نظام الدولة . . سامحنى الله !

غير أنهم فى هذه الحجرة الجديدة قربوا الشبه بينها وبين المستشفى من وجوه مختلفة غير كتابة العنوان على الباب ، فاغلقوا شعاع الباب بالزجاج وجعلوا للنافذة رتاجاً يفتح ويقفل ، ومدوا إليها أسلاك النور الكهربائى الذى لا ينقطع طول الليل عن المستشفى الأصيل ، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد ما استحال ترك الحجرة بغير نور ، وبعد ماثبت أن بقائى فى الظلام الحالك بلا قراءة ولا حديث ولا شاغل من الساعة الخامسة فى المساء إلى الساعة السادسة فى الصباح ، أسبوعا بعد أسبوع وشهراً بعد شهر هو علاج وبيل لا ينصح به أحد من الأطباء

ولكنها إباحات السجن ولا بد فى طى كل إباحة من قيد أو قيود .

فالمفتاح الذى ينير ويطفىء النور لابد أن يركّب عند الباب

من خارج الحجرة ، ولا يصح فى حكم النظام أو حكم « الناموس » أن يركب فى داخلها لكى أفتحه وأقفله حين أحتاج إلى فتحه واقفاله

وهو فى تركيبه خارج الحجرة يظل معرضاً لكل سجين يعبر بالعنبر أو يمشى فى الدور ، ولا يكون معرضا لسجين واحد يحرص عليه لأنه ينير له ويعينه على شأنه ، ولكنه النظام ولا تفسير ولا تأويل لما يقضى به النظام !

فاذا فرغت من القراءة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة فسبيلى أن أقرع الباب السميك أستدعى الحارس ليتولى هو بيديه « شعائر إطفاء النور » . . . . فاذا كان قريباً متيقظا فى تلك الساعة فالخطب هين ، والدعوة لا تطول إلا ريثما تجاب . أما اذا ابتعد أو نام فالحل الوحيد فى حكم النظام هو ازعاج السجناء الذين معى فى الدور جميعاً لادارة المفتاح الصغير ، فان لم يكن هذا فبيتى سهران إلى الصباح لأن أعصاب عينى لا تألف الغمض فى الضياء

---

١ - أخلاق

الألفة شرط المعرفة

ولا تصدق هذه القاعدة على شيء كما تصدق على أخلاق الناس واستطلاع أسرار الانسانية التى لا تنكشف — وليس فى الوسع أن تنكشف — من اللقاء الأول

فنحن لا نعرف شعباً من الشعوب ولا فرداً من الأفراد حق عرفانه حتى نقاربه ونعاشره ، ونزيل مابيننا وبينه من حجاب الغرابة الذى يمنعنا أن ننفذ إلى قرارة نفسه ونتغلغل إلى بواعث أعماله ومناشيء إحساسه ، وما يراه هو طبيعياً عادياً فى نظره ويراه الآخرون فى أنظارهم غريباً أشد الغرابة بعيداً أشد البعد من العادات المألوفة

لكن الصعوبة فى الأمر أن الغرابة مانعة للمعرفة من جهة ولازمة لها من الجهة الأخرى

مانعة للمعرفة لأنها تحجب عنا الأسرار التى تنطوى وراء الظواهر ولا تنكشف إلا بانكشاف الأستار والحواجز

ولازمة للمعرفة لأن المعرفة هى التمييز والفصل بين الحدود ، وكيف ترانا نميز إنساناً من إنسان ، إذا نحن لم نشعر بوجود الاختلاف والغرابة بينه وبين غيره ؟ أو نعتقد أنه مخلوق غير الخلائق الأخرى فى دخيلته وظاهر أمره ؟

لهذا كانت المعرفة الحقيقية أصعب الأشياء وأدعاها إلى اليقظة والانتباه . لأنها تفرض على النفس أن تجمع بين النقيضين في وقت واحد ، وترى الشيء غريباً ومألوفاً في حالة واحدة ، وإنما يكون تذليل هذه الصعوبة باشراك الشعور والخيال والعقل في البحث عن الأمور التي نبتغي عرفانها والنفاذ إلى بواطنها ، فما يراه العقل متناقضا مختلفا يجمعه الشعور في نور واحد ويتولاه الخيال بالتقريب أو التبعيد حتى تتمكن النفس من إدراكه واستيعابه على حقيقته التي تخفى عن الحس والمشاهدة

وفي السجن يعاني الباحث هذه الصعوبة بعض المعاناة حين يراقب أخلاق السجناء ويعالج التمييز بينهم وبين سائر الناس في الطبائع والعادات . فهو يراهم مئات وألوفا ولا يرى غيرهم في حالة تعارض حالتهم ومعيشة تفترق من معيشتهم ، فيسبق اليه — من ثم — أنهم وسائر الناس على حد سواء في جملة الأحوال ، وأنك تستطيع أن تبدل ألفا منهم في جنح الظلام بألف ممن يعيشون خارج السجن دون أن تحس الفارق بين هؤلاء وهؤلاء عند طلوع الصباح !

إلا أن هناك أمراً خليقا أن يهون هذه الصعوبة ويزيل اللبس والاختلاط بعض الازالة ، وذاك أن المسافة بين هذه البيئة

« السجنية » وبين الباحث الغريب عنها تظل بعيدة مفصولة مهما يطل الوقت ويطل الفارق فى مكان الاقامة ، فتبقى بينه وبينها على طول المدى وقرب الجوار مسافة كافية للرؤية الصحيحة والتمييز الواضح

***

ومن السهل على من يراقب أحوال هؤلاء السجناء أن يقسمهم قسمة عاجلة إلى طائفتين من المجرمين مختلفتين فى البواعث والأخلاق وضروب الاجرام

فهناك مجرم الاعتداء الذى لا يبالى ايلام غيره

وهناك مجرم الخسة الذى لا يبالى ما يجلبه على نفسه من العار والمهانة

وأظهر ما يبدو من خلائق المجرم الأول — مجرم الاعتداء — أنه جامد الحس من ناحية الشعور بالألم على إطلاقه ، فهو يتحدث عن أفجع المصائب وأشنع حوادث القتل والتعذيب كأنه يتحدث عن فكاهة لا إزعاج فيها للسامع ولا للمتكلم ، وقلما يدرك استغرابك إذا أنت استغربت هذه اللهجة منه فى وصف الفظائع والموجعات دون التفات منه إلى وقعها أو مبالاة فرائسها أو المستمعين لقصصها . وقد كان فى الدور السادس —

وهو الدور الذى فوق دورنا الخامس فى عنابر السجن
فتى من قرى الصعيد قتل أخته فى القاهرة لأنها هربت من
أهلها ولاذت بدور البغاء ، فتعقبها حتى عثر بها فى الدار التى
تسكنها ، وراوغها أياماً وهو يخفى عنها قصده حتى اطمأنت إليه
وسالمته ومهدت له صنوف المتعة بصواحبها وجاراتها ، وهو
يتحين الفرصة لقتلها فى غفلة عمن حولها ، إلى أن سنحت له
ذات يوم ففاجأها بطعنة سكين وانقض عليها بالطعنات دراكا
حتى فارقت الحياة . فنى ليلة من ليالى السجن طاب له السمر
واستدرجه زملاؤه فى الحجرات المجاورة له إلى شرح قصته ،
فما راعنى إلا أن أسمع هذا الفتى يصف قتل أخته ، وكيف غرر
بها ، وكيف تناول الطعام معها وهو يخفى السكين فى ثيابه ، ثم
كيف طعنها بعد ذلك ، وكيف صاحت به تناديه باسم الاخوة
وتناشده حرمة المشاركة فى الأمومة ، ثم كيف قضى عليها
واحتز رأسها وسافر به إلى بلده ليريه أنداده وقرناءه الذين
عيروه من قبل واستطالوا عليه . فلو أنه كان يتكلم عن ذبح
شاة أو دجاجة لما اختلف الأمر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان
أقل من ذلك مبالاة بما يقول واسترسالا فى النكات والمزاح
كلما عبث به أصحابه وتعمدوا احراجه واستفزاز طبعه . وليس

هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنقمة ولكنها لا تخلق البلادة ولا تعمى الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعبار والأسف على ماكان من سبب القتل والاضطرار إليه

ومع هذا ربما كان لهذا الفتى القروى الجاهل الخشن عذره من عادات قومه وشدة الغيرة فى نفسه ، وربماكان يبالغ فى الاستخفاف بفعلته لتخدير شعوره والأنفة من الندم على شىء هو من واجبه فى شرع فتوته وفى شرع أبناء بلده ، ولكنى سمعت فتى متعلماً يباهى بقليل ما تعلم من الدروس الابتدائية والثانوية ويكلم سجناء « الحماية » باللغة الانجليزية ليدلهم على حظه من الدراسة ، ويريهم أنه سليل طبقة غير طبقة المسجونين معه فى مثل جرمه ، وكان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لاشتراكه فى جماعة مؤلفة للسطو على الأغنياء ، فلما استدرجوه ذات ليلة للكلام عن سبب سجنه لم يتردد فى ذكر السبب الصحيح ، ولم تبد على كلامه مسحة من الندم والخجل ، وإنما كان يبدو عليه الزهو بانتمائه إلى جماعة لها فروع وقرارات ورؤساء أقسام واجتماعات ومداولات ، وكان يتحدث عن

قتل من تقرر عندهم قتله كأنه يتحدث عن عقبة يفخر بالمهارة في إزالتها ، ولا يفرض لها حياة تصان وتتعلق بها الآلام والأحزان . .

وقد كنت أسمي هذه البلادة في هؤلاء المنكوبين « أنانية » أو إمعاناً في الأثرة العمياء لو كانوا يشعرون بالألم في نفوسهم ولا يشعرون بالألم في نفوس غيرهم ، ولكنهم على ماعلمت من أطوارهم الكثيرة محجوبون عن شعور الألم حيث كان ، فلا يحسونه في أبدانهم ولا في ضمائرهم كما يحسه الآخرون فيما يعتريهم من المؤلمات الجسدية والفكرية ، وربما ضرب أحدهم رأسه بالحائط ضرباً عنيفاً دامياً ليتهم غيره بضربه ، أو ربما وخز نفسه وعرض أعضاءه للتلف من أجل أيام قليلة يطمع في قضائها بالمستشفى أو تحت الرقابة الطبية ، وقد قطع أحدهم بضعة من جسمه بحديدة كليلة يكتبون عليها في السجن رقم السجين ولا تصلح للقطع إلا بجهد شديد ، لأنه قدر أن هذه الفعلة قد توقع مأمور السجن في عقوبة أوشبهة إهمال !

فالآفة عند سجين الاعتداء إنما هي آفة نقص في وظائف الشعور وليست آفة « الأنانية » على معناها الشائع المفهوم ، وليس ببعيد أن يجرم الإنسان لفرط الشعور بالألم كما يجرم

لقلة الشعور به فى نفسه وفى غيره ، ولكن هذا الصنف من المجرمين نادر جد الندرة بين من شهدت فى سجناء «قرهميدان»

أما مجرم الخسة الذى لا يبالى العار والمهانة فهو حقير بين ضراة المجرمين المعتدين ، يقولون عنه أنه «نتن» يدخل السجن فى غير طائل ويصبر على الاهانة وسوء المعاملة من السجانين ولا يستثار

ومعظم ما يقترفه هؤلاء المجرمون «الاخساء» مقصور على صغائر السرقات والاحتيال على الصغار والاغرار وما إلى ذلك من جرائم النذالة والطمع الوضيع

وهم فى الحق « نتنون » كما يقول عنهم زملاؤهم من أصحاب الضراوة والاعتداء : شعورهم بالعار ضعيف وشعورهم بالزهو أضعف ، ويعترفون على إخوانهم علانية بأقبح الرذائل فى غير حياء ولا إحساس بفقدان الحياء ، ومع هذا تأبى الطبقة الانسانية أن تحرم أحداً نصيبه من الزهو والمباهاة ولو كان من أدنى الأدنياء ، فحتى هؤلاء يزهون فيما بينهم ببعض الخلال ويأخذون على أنفسهم بعض العيوب ، وبماذا يزهون ؟ يزهون بالافتنان فى أساليب النـــذالة والاحتيال الشائن

المرذول . . . . . وعلى من يعيبون ؟ ؟ . . . يعيبون على الجهلاء بتلك الأساليب ! وعلى المحدثين فى الاجرام لأنهم بلهاء لا يفهمون الخـــدع و « المصطلحات » التى يفطن لها ذوو الدراية بالسجون !! وهم فى كل حال لا يعدون الزهو الرخيص الذى لا يكلفهم جهداً من الجهود

٢ - أخلاق

من أصدق المقاييس التى تسير بها طبائع النفوس الفكاهة والغناء

فانك لن تجد الفكاهة ولا الغناء فى نفوس خلت كل الخلو من الخير والمحبة الانسانية وصلاح الفطرة للعطف والمؤاخاة .

فالسليقة التى تعرف الفكاهة تعرف مواطن الضعف والتناقض من النفوس الانسانية ، أو تعرف — بعبارة أخرى — أسرار النفس وخفاياها وما تداريه وما تكشف عنه وما تقابل به الدنيا وما تحفظه فى أعماق سريرتها ، فكأنما تلك السليقة على اتصال أخوى حميم بجميع النفوس الآدمية ، كاتصال الصديق بصديقه المطلع على دخائل قلبه وحقائق نياته ، وكأنها على استعداد دائم لأن تضحك مع جميع النفوس ضحك السرور والمشاركة ، وأن تضحك منها ضحك العطف والمداعبة ، وتلك حالة نفسية لن تخلو من الخير والشعور الحسن من ناحية بنى الانسان .

أما السليقة التى تحسن الغناء أو تحب الاصغاء إليه فهى سليقة تحس وتعرف الوزن والنظام بشىء من الزكانة والالهام ، وهى — كتلك — سليقة تلتق بالنفوس الأخرى فى مجال العاطفة والذوق والشعور بالجمال

وفى السجن لم أر إلا عدداً يسيراً جداً يحسن الفكاهة ، وإن كنت رأيت سجناء كثيرين هم موضوع فكاهة ومثار ضحك ودعابة . ولا أذكر أننى سمعت كلمات كثيرة تدل على فطنة للمواقف المضحكة والمساجلات النفسية اللطيفة ، وإن كنت قد سمعت كثيراً من النكات المحفوظة والفكاهات المكررة التى يفوهون بها كما تفوه الببغاء بما يلقى اليها من الأصوات

ولم أسمع قط غناء حسناً من سجناء الجرائم العنيفة أو سجناء الجرائم الخسيسة . ولكننى سمعت الغناء الحسن من بعض الفتيان المحكوم عليهم بالحبس فى قضايا تهريب المخدرات وتعاطيها ، وهم فى أغلب الأحايين مسخرون ينقادون لكبرائهم المسيطرين عليهم ، لم تنغرس فيهم بعد نذالة الجريمة العامدة المدبرة التى تطلب الكسب من وراء الأضرار بالناس ، ومن كان منهم يتعاطى المخدرات فهو ضعيف يعتدى على نفسه وليس بمجرم من أولئك الجناة الأشرار الذين يعتدون على غيرهم عدوان المكيدة أو عدوان الضراوة

فاذا اتخذنا الفكاهة والغناء مقياساً للخير والمحبة الانسانية فى نفوس السجناء فأهل الخير فيهم قليل ، وهذا القليل الموجود يشف — فى أغلبه وأعمه — عن معدن وضيع أو معدن

مشوب ، وإن لم يجز لنا أن نقول إن الخير فيهم معدوم وإن صلاحهم ميئوس منه ، ولا سيما حين يعالجون بما يناسبهم وحين يقترن حسن النية فى علاجهم بالفكرة الرشيدة والعزم الصبور

ويخطىء من يظن أن السجناء لا يغنون كما يغنى الطلقاء والأبرياء كلما وجدوا فرصة للغناء ، فانهم ليهتفون ولا يقصرون فى الهتاف ملء صدورهم كلما خلالهم الجو تحت ستر من الليل ، وربما كانوا أشد كلفاً بالشدو والهتاف من الطليق المرسل على أرسانه ، لأن رفع الصوت وسيلة من وسائل الشعور عندهم بالحرية وإرسال النفس على السجية ، فهو مطلوب لهذا الغرض ولو لم يكن فيه طرب أوسلوى ، ولا حاجة بالانسان إلى دخول السجن لعرفان هذه الحقيقة بل لاستماع هذه الحقيقة الصارخة من مسافة بعيدة ! فان العبور على مقربة من السجن بين العشاء والساعة التاسعة كاف لاستماع مايسمعه السجناء فى الداخل من الغناء والهتاف ، وقلما تمر ليلة واحدة دون أن يدوى السجن بأناشيد أهل الصعيد ومواويل أبناء البلد على اختلاط لاتمييز فيه بين السامع والمسموع ، ولكن أهل الصعيد وأبناء البلد كما يعلم القراء يغنون كأنهم يتكلمون ، أو هم يغنون ويصيحون حين يعوزهم السمر

والكلام وتكل ألسنتهم من السكوت ، وليس هـذا الذى نعنيه بالغناء المبين عن الطبائع والأخلاق ، وانما نعنى به الأوزان الفنية التى تتجلى فيها الأذواق وخلجات العواطف وألوان الاحساس ، وهذا الذى نقول إنه قليل نادر بين المجرمين .

***

وربما كان الأولى بى أن أتخذ مقياساً آخر للخير فى طبائع زملائنا السابقين يعنينى أكثر مما تعنينى هذه المقاييس التى تعمّ جميع الباحثين فى هذه المشاهدات ، لأننى اختبرت من معاملة زملائنا صنوفا من البر والطيبة مختلفة المصادر والاسباب ، فكنت أنا نفسى مقياسا محسوسا يقاس به ويقيس !

فمنهم — وهم القليل — من كان ينطوى على كرم مأثور ويلوح لنا من بعض بوادره وتصرفاته أنه يقبل على نفسه حالة السجن ومضانكه وآلامه ولا يقبل أن يعانيها رجل من ذوى الصناعة الفكرية ، كأنه يحس فى قرارة ضميره بفارق بين عمله وعملنا ، وسائقه إلى السجن وسائقنا ، ولا يأنف أن يعترف بهذا الفارق ثم يرجح كفتنا على كفته عند الموازنة

ومن هؤلاء من كان أساه لنا واهتمامه براحتنا والتسرية عنا

يكلفانه المجازفة الجريئة والاقدام على العقوبة وتضييع حقه فى الاعفاء من ربع المدة وهو الحق الذى يناله كل من قضى مـــدة السجن بغير إخلال بقواعد النظام ، ويزيد فى فضلهم أنهم كانوا لا يطمعون منا فى جزاء عاجل ، ولا ينتظرون الجزاء بعد الافراج عنهم وعنا ، إذ كان موعدهم بمفارقة السجن بعد موعدنا بسنوات أو شهور طوال

وقد كان بين هذا الفريق فتى يجيـد الغناء بعض الاجادة ، ويبث فيه شيئا من الحنين السـائغ والبواعث الشجية ، وكان يخشى الحراس إذا غنى مساء لأنه معروف الصوت فى السجن كله لا يختلط حيث كان بأحد غيره ، فكنت أسمع بعض زملائه الذين يحضونه على الغناء يقولون له إن « الأستاذ » — ويقصدوننى أنا — هو الذى أوعز الينـا أن نقترح عليك كيت وكيت من الأدوار ، فلا يتردد فى الاجابة دون أن يعرفنى أو أعرفه ودون أن يلقانى أو ألقاه

ومنهم من لا يبلغ مبلغ هؤلاء فى كرم الخليقـــة ولكنه يخدمنا ويبذل المعونة لنا عن غبطة منه بانشاء العلاقة بينه وبين أناس يراهم أرجح منـه منزلة وأكبر ممن تجمعـه بهم علاقة الزمالة ، ويرضـيه أن يستحق من هؤلاء الناس كلمة الثناء وعرفان الجميل والشعور بفائدته لهم فى حالة من الحالات ،

وتلك ولا ريب نية خير لاغبار عليها ، لأنها دليل على طبيعة لم تتجرد من التطلع إلى حسن الظن وطيب الأحدوثة

ومنهم من كان باعثه للخدمة والمعونة إعجابه بالجرأة كما يفهمها ، ونظره إلينا كما ينظر إلى أنداده الجسورين فى معارك الفتوة ومقاحم الضرب والمصارعة ، وهو باعث لم نكن نغتبط به وإن كنا لاننسى حسن النية فيه !

وكلهم كانوا يضمرون لنا شعور المودة ويخلصون الرغبة فى بذل المعونة الميسرة لهم كلما أتيحت لهم وسيلة من وسائلها

***

على أننا لم نخطىء فى معظم السجناء عاطفة مصرية صميمة لاحظناها فى جميع المصريين على تباعد الطبقات والأقاليم ، ونعنى بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الأرحام والأسنان

رأيت مرة طفلا صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث فى الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقرانه الصغار ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة

الطبيعية التى يستشعرها الصغير فى غيبة أهله وقال له «جوعان !»

فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له : «وماذا أصنع لك يابنى ؟ !» وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه مالبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبق لنفسه النصف الآخر ، ولو نظروه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد

ورأيت رجلا شيخاً نازلا من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ، ولا يجد الممرض الموكل به وبغيره من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم اليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله دون أن يكافه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة فى السجن وفى الحى الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سباً لا يطيقه من فتى فى سنه ، ولا يأمن من يسبه به ان يستهدف لضربة

قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « أنظروا إلى الرجل الشايب يعيب ولا يخجل ! . . » وقال للرجل الشايب : « لو غيرك قالها لقتلته ! ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبي ؟ »

***

وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة فى أخلاق الأمة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد فى هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على اجمالها ، ولهذه الظاهرة فى تكوين الأخلاق وتحويل العادات قرار عميق لا يغفل عنه المصلح الاجتماعى المشغول بأطوار هذه الأمة العريقة ، ومن زمام هذا الخلق الأصيل ينبغى أن يتناول المصلح الاجتماعى أهم دواعى الاصلاح فيمن يحتاجون إليه من الضالين والزائغين ، سواء كانوا من نزلاء السجون أو من الطلقاء الذين نجوا من العقاب ولم ينج الناس مما يجترحون عامدين وغير عامدين

الوعظ

من المناظر — ولك أن تقول من المسامع — القليلة المؤنسة فى السجن حلقات الوعظ التى يعقدونها بين حين وآخر ، ففيها يتسنى لمن بالسجن أن ينظروا إلى اجتماع إنسانى يخاطب فيه السجناء خطاب أصحاب النفوس التى قد يثمر فيها الكلام وقد يرجى لها العلاج !

رأيت أول حلقة من هذه الحلقات يوما من أيام الاثنين على ما أذكر ، إذ كان بعض الحراس ينطلقون بين الحجرات ينادون : « المسيحيين المسيحيين » وأنا أعجب لهذا النداء ولا أدرى لماذا يجمعون المسيحيين وحدهم دون بقية السجناء ، وقبل أن أسأل أحداً عن القصة رأيت الواعظ المسيحى فى ثيابه السود ، فذكرت الوعظ فى السجون وانتظرت أثناء الرياضة الصباحية حتى أسمع ما يقول باسم الدين لهؤلاء الخارجين على الشرع والقانون

وما هى إلا لحظات معدودات حتى أقبل السجناء المسيحيون أفراداً متفرقين من مذاهب شتى لا تجمعها كنيسة واحدة ، فجلسوا بين يدى الواعظ القرفصاء إلى زاوية مشمسة فى فناء السجن ، وجلس هو على كرسى وفتح التوراة وأخذ يقرأ منها

ما صادفه من القصص ويشرح معناها بصوت يعلو ثم يعلو حتى يسمعه من فى الميدان القريب

ومنذ ذلك اليوم كان يطيب لى أن أشهد هذه الحلقات وأسمع ذلك الواعظ كل يوم اثنين، لأنه كان يتحدث عن قصص التوراة حديث الحاشية المخلصة عن النوادر الملكية التى تقع بين كبار السلاطين وكبار الأتباع ذوى الدالة عليهم ، وكان يروى التجارب التى يبلو بها الله أنبياء بنى إسرائيل كأنها مفاجآت الأب الشيخ الحكيم حين يمتحن مدارك الأبناء الصغار ويغتبط بما يراه من حيرتهم البريئة وضعفهم المستسلم ، ويضحك أحياناً ضحك العطف والرجاء حين يكشف لهم عن دعواهم القاصرة وغرورهم المتعجل ، فيطيب لى أن أرى التوراة منقولة إلى عالم الخيال الفطرى والتصوير الشعرى والتمثيل الفنى الذى لا تكلف فيه

وكان من عادته إذا فرغ من شرحه ووعظه أن يطلب إلى أحد السجناء أن ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش فى نفسه ونفوس زملائه ، فمنهم من يحسن الكلام ومنهم من يتعثر بالألفاظ المألوفة فى الأدعية والصلوات ، وكل أولئك مما يستحب الاصغاء اليه والتأمل فى مغزاه

ولا أحسب أن أحداً منهم كان يجيـــد الكلام فى دعائه وصلاته كما كان يجيده رجل من أضراهم بالشر وأولاهم بالعقاب وأسوئهم سيرة بين السجناء ، وإن شهدوا له بالبراعة والذكاء : وهو تاجر مخدرات مشهور

سمعته مرة يصلى ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بنى الانسان . . . فسألت عنه فقيل لى هـــذا فلان صاحب الحيل المعروفة فى ترويج المخدرات ، وكنت قد سمعت عنـه وعن قضاياه وأحابيله فى إيقاع صرعاه ، وإغرائهم بتناول السموم وإدمانها ، فقلت لو كان هذا المصلى الخاشع يدعو الله ليستجاب دعاؤه لمـا دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولـكنها حيلة جديدة من حيله الـكثيرة ، ولعلها أيضا من حيل التخدير !

***

ويتردد على سجن مصر عدة من الوعاظ المسلمين بين الصبيحة والظهيرة ، ولـكن فى غير موعد مقرر أو يوم معلوم

فاذا وصل أحدهم إلى السجن جمعوا له سجناء دور من الأدوار فى ساحته الارضية ، وجلس هو على كرسى أمامهم ينصح لهم ويحذرهم عقاب الآخرة بعد عقاب الدنيا على طريقته فى النصح و التحذير

فبعضهم كان يحفظ خطبه ويعيدها كما هى كل مرة بعد تحوير طفيف لا يقدم ولا يؤخر ، وهو يحاول أن يذهل سامعيه من السجناء عن هذا التكرار برفع الصوت والتلبس بالغضب والصرامة فى الزجر والانذار ، ويمضى فى تكراره مطمئناً إليه لأنه يعظ فى كل مرة سجناء دور واحـــد من أدوار السجن الكثيرة ، وتنقضى مدة طويلة بين العظتين فى الدور الواحد يخيل إليه أنها كفيلة بالتشكك والنسيان .

وبعضهم يتوخى الطريقة العصرية فى إختيار المناسبات واتخاذ المناسبة الأخيرة من بعض الحوادث الطارئة التى لها مساس بأحوال سامعيه

وبعضهم يعتمد على التأثير بالسن والمهابة والسمت والثياب الفاخرة ، ويحيط عظاته بمراسم طنانة كأنها مراسم أصحاب العزائم والتعاويذ

وكان يعنينى أن أراقب السجناء حين يحضرون إلى العظات وحين ينصرفون ، لأرى كيف يقبلون عليها وكيف ينصرفون عنها وكيف - فيما بين ذلك - يستمعون إليها

فبدا لى أن أناساً منهم يحضرونها بروح الهازىء المستخف الذى يتحـــدى الواعظ بشقاوته واستعصاء أمره ، وكأنما

يقول بينه وبين نفسه ، : (هلمو إلى ذلك الرجل الطيب الذى يحسب أنه يفهم من الأموز مالا نفهم ، لنرى كيف يعلمنا العقل والدربة ، ويصلحنا بكلماته وتهويلاته)

وأناس منهم يرحبون بساعة الوعظ كما يرحب التلميذ بساعة لعب يستريح فيها من حصة الدراسة ، ويأنس فيها بالجلوس بين إخوانه فى شىء من الطلاقة والسماحة

وأناس آخرون يرحبون بساعة الوعظ لأنهم يغتنمون فيها الفرصة حين يزجرهم الواعظ ويصب عليهم اللوم والتبكيت ، ليبثوه الشكوى من قسوة الحراس وجور الأحكام . ويلقوا شيئا من اللوم على (النظام) وشيئا من اللوم على الأيام

ولا تخلو جموعهم من أفراد تلمحهم عند انصرافهم منكسى الرءوس كاسفى البال من أثر الوعظ أو من تداعى الخواطر واسترسال الخيال ، وربما سمعتهم يرثون لأنفسهم ويندمون على مافرط منهم ، ويودون لو هداهم الله وردهم أناسا كسائر خلقه لايعرفون المحاكم والسجون ، ولا يبتغون العيش إلامن الرزق الحلال ، ناعمين وادعين بين الأمهات والآباء والأزواج والأبناء ، ثم يعلقون ذلك كله على القدرة والاستطاعة ، وهم مستقرون فى ضمائرهم على أنهم لايقدرون ولا يستطيعون ،

لأنهم لابد لهم من العيش وكسب الرزق ، وهم يشكون بوار الصناعات وشح الناس وندرة الأعمال

***

على أن أثر الوعظ فى الجملة ضعيف سريع الزوال ، وقد يبلغ من ضعف أثره وسرعة زواله أن ينقضه بعض سامعيه فى ساعة سماعه ، وأن يصبح الواعظ نفسه هدفا يرميه أولئك الخبثاء ، وصيداً يصيدونه ، ودليلا يثبتون به أو يثبتون فيه بطلان وعظه وضياع جهده وعبث رجائه ، حتى يخيل إلى الانسان فى هذه الحال أن حلقة الوعظ إنما هى حلقة سباق وصيال بين الجريمة والهداية ، تلتقيان فيها لتنظر كلتاهما أيهما هى الأقدر على الظفر بالأخرى وتعريضها بين المتفرجين للهزيمة والسخرية ! .. انتقاما منها لاعتدادها بنفسها وسوء ظنها بقوة غريمتها ! وقلما تمثل حلقة المباراة هذه فى شىء كما تتمثل فى القصة التالية التى سمعتها من أحد موظفى السجن ، والعهدة على راويها .

أعرف واعظا مشهوراً يطوف بلاد القطر ويحب أن يتخذ أبناء من موعوظيه فى كل بلدة وكل اقليم ، يرعاهم رعاية أبوية يسره أن يرى منهم حفاوة البنوة وتحيتها ؛ ويمد يده للتقبيل ما انتهى من وعظه غير ممتنع ولا ناظر إلى تقبيل يده إلا كما

ينظر الأب إلى تحية الاعتراف والشكر من ولده

وشاخ الواعظ الذى أعنيه وضعف عن الطواف فى أنحاء القطر ، ولكنه لم ينقطع كل الانقطاع عن الوعظ فى السجون وإن أطال الفترة بين عظاته كلما تقدمت به السن

وجاء الشيخ يوما وهو لايكاد يقوى على الجلوس والحركة إلا بمعونة معين ، فأسهب فى نصائحه على عادته وملأ السجن بأصوات الدعوات يلقيها على سامعيه ، ثم يطلب منهم تكريرها مرات متواليات بنغمة مرتلة يلقنهم إياها وهو يهتز بينهم على نغمة ترتيلها ، أو يتركهم يعيدونها ويسبح فى غيبوبته العلوية حتى يفيق منها !

فلما ختم عظاته وترتيلاته تدافع السجناء حوله يهمون بتقبيل يديه والتماس البركة منه فاذا هو يحجم عنهم ويصيح بهم صيحة منكرة : « مكانك ياولد ! إياك أن تقترب ياولد ! من بعيد ياولد ! » كأنه يرتل هذه الكلمات على طريقته فى ترتيل النغمات !

قلت لبعض الموظفين ممن اتفق وجودهم على مقربة منى . « ماخطب الشيخ يأبى تقبيل اليد من هؤلاء ؟ أزهادة منه فى السجناء ؟ أم زهادة فى هذا الصنف من قبلات الأبناء ؟ »

قال : « لاهذا ولا ذاك ، ولكنه معذور لأنهم سرقوه

مرة ويخشى أن يعيدوا عليه الكرة ، فهو يجانبهم هذه السنوات ويستعيض الله خيرا من تلك القبلات »

قلت : « ياسوء هذا التقريظ ! أيسرقون واعظهم وهم فى دار العقاب ؟ ! »

قال : « لقد فعلوا جزاهم الله من أبناء أعقة ، وفعلوها فى يوم تجلى فيه الأستاذ فاختلب القلوب وأبكى العيون ، وأرسل يديه لهم ينكبون عليهما بالتقبيل ويوســـعونه من التمسيح والتبجيل ، وهو يحسب أنهم ينتصحون ولا يسرقون ، وينتفعون بمايفعلون ، فقد أشبعهم وعظا وهداية فأشبعوه اعترافا ورعاية .

وذهب إلى حجرة المأمور وقد رضى عن نفسه وأحب أن يكافئها بعطسة أو عطستين من عطسات الايمان والتسميت برحمة الله : فضرب يده فى جيبه الواسع فاذا علبة السعوط ضائعة . . . وأسرع إلى مكان الساعة الذهبية الثمينة فاذا الساعة ضائعة ! وكيس النقود أين هو ؟ لاريب أنه لن يبقى فى الجيب إذا فارقته الصاحبتان الحميمتان !

« وطارت بقايا الوعظ من رأس مولانا ، وصاح بالمأمور يستغيث ، فأكبر الرجل أن يصاب الاســـتاذ فى كفالته بهذه الخسارة الفادحة لأنها خسارة فى وعظه وفى ماله ، فجمع السجناء

الموعوظين ولما يستقروا بالحجرات ، وأقسم لهم لينكلن بالسارق شر تنكيل إذا هو اهتدى إليه ولا بد أن يهتدى اليه ، فلينقذ نفسه من شاء السلامة ولا عقاب عليه

« فأما علبة السعوط فقد عادت فارغة لأن « الشطار » أحرص من أن يفلتوا من أيديهم شيئاً فيه رائحة الدخان

« وأما الساعة فقد عادت لأنها لا تنفع ، وعاد معها كيس النقود لأن النقود التى فيه أكبر من أن تبلع ، وسئل السارقون : كيف تجترئون على الاستاذ وتستحلون ماله وعتاده وتزدرون وعظه وإرشاده ؟ فقال خبيث منهم : ما اجترأنا عليه ولا سرقناه ، وإنما هى بركة من مولانا نغتنمها ونتقرب بها إلى الله ! »

قال الموظف الذى يقص على ما رآه : تلك قصة الشيخ . فهل يلام إذا هو ضن بهذا المال المبارك وفرّط فى القبلات ؟ وهل عليه جناح إذا هو أشفق من هذا الافراط فى اختلاس البركات ؟!

***

ونحسب أننا نظلم السجناء إذا أحلنا الذنب كله فى فشل المواعظ على رداءة طباعهم واستعصاء ادوائهم . فالواقع أن المواعظ على أحسن حالاتها لا تشفى غلتهم ولا تخاطبهم بما يناسبهم ولا تتحرى دخائلهم ومواقع التأثير والاقناع من طواياهم ، والواقع أن إصلاح الأخلاق عسير فى السجون

وهى على نظامها القامع الذى يفرض الكبت على الطبائع ، ويشل وظائف الحياة فى جسوم قوية ونفوس لا تقصد العفة لطهارة أو قداسة حتى يقال إنها تستفيد بالرياضة وعلاج الشهوة والارادة

وأشد من ذلك إيذاء لأخلاق السجناء أنهم يفقدون فى السجن الدرس الوحيد الذى هم مفتقرون إليه

فهم أناس منحرفون يجزيهم القانون بما يجزيهم به حين يعتدون ويسلبون ، لأنهم يؤمنون بالعنف والقوة ولا يؤمنون بالحقوق وآداب الاجتماع ، ويعتقدون أنهم فى حرب مع المجتمع من غلب فيها ظفر ولا جناح عليه ، فاذا استطاع أحدهم شيئا فعله ولم يحسب حساباً لما يجوز له وما لا يجوز

فماذا يلقون فى السجن من معاملة السجانين ؟ يلقون من معظمهم ما يثبت فى نفوسهم تلك العقيدة ويزيدهم ايمانا بأن الأمر قائم على العنف والغشم واعتداء من يستطيع العدوان ويأس الضعيف المغلوب من انصاف ذوى السلطان ، فيبطل درس الشريعة والأدب ويبقى درس الواقع الذى شبوا عليه من نشأتهم الأولى ووجدوا مصداقه فى السجن ومباءة الاصلاح والتوبة ، وكيف يراد منهم أن يعدلوا عن ذلك الدرس ويرتابوا فى صدقه وهم لا يجدون إلا ما يؤيده ويزكيه !

ليلة المستشفى

إذا كان السجين يستنفد كثيرا من الحيلة والخبث فى تهريب الممنوعات فمن الحق أن نعلم أنه لا يستنفيد حيلته كلها ولا خبثه كله فى هذا المطلب العزيز ، ولكنه يستبقى كثيراً منهما أيضاً لتهريب صنف آخر عزيز عند السجناء وإن كان بغيضاً أشد البغض عند الطلقاء ، وهو المرض ، قاتله الله

نعم «المرض» أعنى ولا خطأ فى الكتابة ولا فى الطباعة !! فان الأمور لتنقلب أحياناً فى السجن رأساً على عقب حتى يتمنى المرء فيه مايتمنى الخلاص منه وراء جدرانه ، والمرض بعض هذه الأمور

إذا تيسر بقضاء من الله فذاك لطف من الله ! وإذا لم يتيسر فالصناعة تغنى هنا ما ليست تغنيه الطبيعة ؛ والمرض الصناعى لمقلد عزاء لمن فاته المرض الطبيعى الأصيل ، حتى يأذن الله بما يشاء

ولهذا برع السجناء فى تقليد الأمراض على أنواعها وفى مقدمتها الأمراض الجلدية والأمراض التى ترتفع بها الحرارة ، فليس أيسر عليهم من اصطناع الحمى أو اصطناع الجرب والبثور الكريهة وأعراض الاصابات السرية ، وتسمع الواحد منهم يهمس لصاحبه فى أثناء الرياضة أو يناديه بالليل إذا أمن الوشاية :

« غداً حتى فى العيادة يافلان ! » أو « غداً فى قسم الجرب ! » فاذا هو موعد يلتقيان فيه ساعة بل ساعات وقد يطول إلى يوم بل أيام ، لأن المريض الذى يلتبس مرضه على الطبيب يحجز فى قسم « الملاحظة الطبية » حتى تنجلى حقيقة دعواه وتسفر الملاحظة عن دخوله المستشفى أو إعادته إلى الحجرات ، مع جرعة مريرة من العقاب

وليس العقاب بالشىء المهم عند مصطنعى المرض وطلاب الراحة فترة من الزمن ولو أعقبها التعب المضاعف ، فان السجين إذا ظفر بالانتقال إلى قسم « الملاحظة الطبية » أياماً فقد غنم الفراغ من العمل أولا ، وغنم الطعام المقبول فى بعض الحالات ثانياً ، وغنم لقاء أصحابه الذين يحال بينـــه وبينهم فى الحجرات والمصانع ، وقد يسعده الحظ عند الطبيب فيغنم الصعود إلى ساحة الرضوان عند السجناء ، وهو المستشفى !

وهذا المستشفى إذا رآه إنسان من الطلقاء عافه لأول نظرة ولم يصبر على البقاء فيه ساعة واحدة ، ولـكنه مع ذلك أمنية لايسعد بها إلا المجدود وصاحب الحيلة التى تتسع لصنوف كثيرة من المداورات والمراوغات ويعلمها بعض موظفى السجن وبعض الأطباء ، ولـكن لايتسع المقام هنا للتفصيل والبيان

أما كاتب هـــذه السطور فليس من السعداء المجدودين ، ولـكنه من الأشقياء المطرودين ! لأنه وصل إلى المستشفى وفر منه تحت سواد الليل ولما تنقض عليه غير ساعات ، وماذا عساك أن تصنع لمن يرقى إلى هذه الأمنية الغالية ثم يدركه البطر فيدفعها عنه بيديه ؟

هكذا حصل . فقد علم القراء أنى دخلت السجن بذخيرة من السعادة فى عرف السجناء تـكفى عشرة منهم لو كان هناك عدل فى القضاء !

دخلته بألوان من السقام فوق الاصطناع وفوق التقليد ، ولم ألبث أن نقلت إلى المستشفى ـ حكما ورسما ـ وأنا لم أبرح حجرتى الأرضية التى لاتدخلها الشمس ولا تفارقها الرطوبة ! فلما سألتهم : ألا توجد فى المستشفى حجرة مفردة تدخلهـا الشمس وتفارقها الرطوبة ؟ قالوا نعم توجد هـــذه الحجرة ولـكنها مشغولة بدواليب الملابس كما أسلفت فى بعض هذه المقالات . . .

وعلى هذا لابد من البقاء حيث أنا أو الانتقال إلى إحدى الغرفتين الواسعتين فى المستشفى للاقامة هنالك مع جمهرة من المرضى قد تبلغ العشرين

فبقيت حيث أنا عدة أيام ، وبقى الزكام يتقدم و يتقدم حتى احتبست الأنفاس وامتنع النوم وعيف الطعام وهبط وزن الجسم بضعة أرطال ، ولم يبد من الظواهر ما يدل على تحسين قريب فى الحجرة الأرضية المحسوبة من المستشفى ، وهى معزولة عنه بحراس وإسداد

لقد رأيت ذلك المستشفى — أى رأيت ساحة الرضوان بعينى — مرات فى خلال زيارة الطبيب ، ولكنى لم أطمح اليه ولم أزل أتوقاه وأتحاماه ، فلما طال الأمر وخيفت العاقبة قلت ألا تجرب ساحة الرضوان مع المجربين ؟ ألا تفتأ على زهدك فى هذا الرجاء الموعود وفى كل رجاء عند القوم موعود ؟

وجئتهم صباح يوم لم أنم فى ليلته لحظة واحدة فأنبأتهم أننى أوثر غرفة المستشفى الواسعة بين أشتات المرضى على البقاء فى هذه الحجرة المسقمة ، فلما كان العصر جاء الاذن بالانتقال فانتقلت إلى غرفة المجروحين والمكسورين ومعى بعض الصحف والكتب والعقاقير والقوارير

وانقضت الساعات الاولى على مايرام :

نظرت من النافذة التى كان سريرى يقابلها فاذا بى أرى

ميدان القلعة والناس يذهبون فيه ويجيئون والمركبات تروح فيه ذات الشمال وذات اليمين ، وهذه سعة — ولو نظرية — لا يشعر بها السجين بين حجرات العنابر الأرضية ، فغالطت نفسى قليلا وقلت خير !

وهبط المساء فأضاءت المصابيح الضئيلة واستطعت أن أقضى هنيهة فى قراءة الصحف المسائية ولم أكن أستطيع ذلك فى الحجرة الارضية قبل إدخال النور اليها ، فغالطت نفسى مرة أخرى وقلت خير . . . ولعله خيران !

وسكن ليل السجن إلا إصـــداء من الطريق فاستوى كل مريض على سريره ، وأخذوا فى السمر الطريف ، وأى سمر طريف ؟ هذا مدمن مخدرات قبضوا عليـــه وأودعوه سجن الاستئناف ريثما يفرغون من تحقيق أمره فألقى بنفسه من الدور الثانى إلى الأرض هرباً من الدنيا التى يحرم فيها بلاء المخدرات ! ... وهذا مدمن آخر يصف كيف يعالجونه من دائه بنقل الدم من جسمه إلى جسمه لأن دمه لايزال كالسم المخدر اذا سرى اليه أغناه عن الجرعة المشتهاة ، وهذا يذكر أيامه فى سجن طرة الكبير بين القتلة وقطاع الطريق وهو لا يخلو فى ذكرياته من ازدراء حاضره والحنين إلى ماضيه ، وهذا يتحدث بما عاناه فى دخول

المستشفى من العنت والبلاء ، وبين ذلك كله جريح يئن وآخر يقضي ضروراته على مشهد ممن حوله ، وآخر يستدعي صاحبه ليعينه عن قضاء ضروراته عجزاً منه عن القيام والحركة . . . وقس على ذلك ماعداه

وكانت النوافذ مفتوحة في ساعات المساء الأولى ، فلما أغلقت واحدة بعد أخرى فشت روائح الدواء وما هو شر من الدواء في الغرفة المغلقة ، وزاد الكرب حين هدأت الأصوات وخيم السكون فلم يكن يقطعه إلا أنين مقلق أو زفير مختنق من بعض أولئك المساكين ، وإلا دقات الساعة الكبرى في مسجد القلعة تتزايد في عدتها على الحساب العربي كأنها تستحث الليل الراكد الثقيل

***

وجعلت أصابر الوقت لحظة بعد لحظة ولا سبيل الى الاغفاء ، وكلما ابتدأ نصف ساعة قلت سأنام قبل انتهائه وهو ينتهي وينتهي مابعده ولا اختلاف بين الانصاف ولا الساعات ، وكنت أحصي الوقت على الحساب الأفرنجي بظهور الممرض صاحب النوبة وهو يفتح الباب كل نصف ساعة ويتسلل الى آخر الغرفة ليدير مرصد الساعة الذي يسجل له مثابرته على السهر

طول الليل ، ومضيت أشغل الوقت خـــلال هذه الفترات بفكرة واحدة لا تتبـدل وهى : هل من فائدة للانتظار ؟ وهل أرجو أن أستقر فى هذه الغرفة أياماً وشهوراً وتلك حالتها بضع ساعات ؟ ثم انقضت الساعة الثانية فطاولت نفسى الى الثالثة فى انتظار نوم نافر لبثت أنتظره ليالى متعاقبات ، وشعرت بمضض انتظاره تلك الليلة فى كل لحظة لما خامرنى من خيبة الأمل وما أحاط بى من التنغيص والايذاء ، فلما كانت الساعة الثالثة بلغ الصبر غاية مداه ، ولما انتصفت الرابعة بادرت الممرض وهو يفتح الباب وطلبت اليه أن يدعو ضابط الحراسة تلك الليلة ، فتردد قليلا ثم لم ألبث أن سمعت قرقعة المفاتيح فى هبوطه على السلم وصعوده بعد فترة ومعه ضابط الحراسة

سألنى الضابط مستغرباً : ماذا جرى ؟

قلت : لا شىء إلا أننى لا أطيق المكث بهذا المكان ولا بد لى من العودة الى الحجرة أو المبيت فى أى مكان غير المستشفى

فتبسم كأنما كان ينتظر هـذه النتيجة وقال لى : وماذا كنت تصنع لو صادفتك القرعة فى قسم الامراض الباطنية ؟

قلت : اهو شر من هذا ؟

قال : بما لا يقاس

قلت شكرا لكم على هذه المرحمة ؟ ولكن الحجرة على كل حال ارحم من الغرفتين ، لانى أجد الارق هنا وهناك ولكنى آرق هناك ولا أسمع الأنين ولا أشم هذه لروائح ولا أرى ما يسوء .

وهكذا ودعت المستشفى غير آسف وطويت الليلة ساهدا الى الصباح ، ثم خرجت من السجن بعد عدة شهور ولو اننى استعرضت ليالى فيه لما استطعت أن أذكر بينها ليلة أسوأ ولا أنكأ من ليلتى تلك فى . . . ساحة الرضوان .

أحمد حمزة

أحمد حمزة رجل بارع الذكاء

بل هو أبرع الناس ذكاء إن كان المقصود من الانسان أن يفهم عكس ما يفهمه الناس

فاذا اتجه الفهم بين الناس من اليمين إلى الشمال فالشيخ أحمد حمزة خير من يفهم من الشمال إلى اليمين ، وكل ما هنالك – كما يرى القراء – اختلاف فى اتجاه الفهم كالاختلاف فى اتجاه الكتابة بين العرب والاوربيين : فريق يبدأ السطر من يمينه وفريق يبدأه من شماله ، وكلهم يكتبون ويقرأون

واحمد حمزة هذا ليس بسجان ولا بموظف فى السجن ولا بزميل فيه ، ولكنه طاهى البيت عندى منذ عشر سنوات

ولا يعرف القارىء كنه طريقته فى الفهم إلا ببعض الأمثلة الواقعة ، فالى القارىء من هذه الأمثلة قليل من كثير

أيسر طلب تطلبه منه يجرى على هذا الأسلوب :

— هات قهوة ياشيخ أحمد

— نعم ؟

— هات قهوة .

— أجىء بماذا ؟

— بقهوة !

— بقهوة تقول حضرتك !

— أى نعم بقهوة

فيكتفى ولا يحوجك بعد ذلك — لذكائه — الى يمين مغلظة ليصدق أنك تطلب قهوة !

***

وكنا على المائدة سبعة فطلبنا من الشيخ احمـــد حمزة أن يضيف الى كراسى المائدة الستة كرسياً سابعاً من غرفة الاستقبال .

ثم كان الأسبوع التالى فكنا على المائدة أربعة ، وكان كرسيان من كراسى المائدة خاليين ، ولكن احمد حمزة صف الكراسى الستة على حسب العادة وجاء بالكرسى السابع من غرفة الاستقبال ، لأن هذا المكان حق كسبه الكرسى بالاستعمال ... ولما ضحكنا وأغرقنا فى الضحك نظر الرجل الى الكراسى ونظر الى ما حوله والى نفسه فى حيرة واستغراب لا يدرى فيم يضحك هؤلاء الناس ولا ممن يضحكون ... أينكرون عليه زيادة الكرسى وهم الذين أمروه بنقله قبل اسبوع ؟ أيضحكون منه ان خالف ويضحكون منه أن أطاع ؟ لا جرم يعقل هؤلاء الخلق من اليمين إلى الشمال حين ينبغى أن يكون العقل من الشمال الى اليمين ! ..

***

وكنت متعباً فى بعض أيام التوعك والانحراف

وكنا نهيء مكانا فى البيت لاحضار قطعة من الأثاث ونحب أن نقيس المكان الذى توضع فيه على حسب المقاس المطلوب

فقلت له عليك ياشيخ احمد بالمتر فقس الحائطين وقل لى أيهما أطول وأصلح لوضع الأثاث المنتظر ، فمضى هنيهة ثم عاد يتمتم ويوسوس كمن يناجى الغيب

قلت : ما الخبر ياشيخ احمد ! هل قست الحائطين ؟

قال : نعم

قلت : وكم الطول ؟

قال مثلا : ثلاثة أمتار

قلت : وكم العرض ؟

قال : كذلك ثلاثة أمتار

فعجبت للأمر لأننى أعرف أن الحجرة ليست مربعة ولكنها مستطيلة بعض الاستطالة ، وسألته : أى الحوائط الأربعة قست ؟

قال : الحائط الذى فيه الباب والحائط الذى امامه !

* * *

وكان فى المنزل ضيوف ذات يوم وأنا أفضل إذا كان فى

المنزل ضيوف أن أغسل يدى فى حوض المطبخ وادع لهم حوض الحمام ، فدخلت المطبخ — حرم الشيخ احمد — وطلبت منه صابونة فذهب وعاد بها وأنا أبدأ غسل يدى ووجهى على مهل ولا أحسب أن هناك مايدعو الى العجلة . ثم خرجت فاذا بالضيوف كلهم عند حوض الحمام ينتظرون الصابون . . . . لأن الشيخ احمد أخذ الصابونة من ذلك الحوض ولم يخطر له أن يسأل نفسه لماذا أجشم نفسى أن أغسل يدى ووجهى فى المطبخ وأدع لهم الحمام ، وإنما قيل له : هات صابونة فجاء بصابونة . وهذا هو المطلوب . . . . ولماذا لايجىء بها من حوض الحمام ولم يقل له أحد مؤكداً مشدداً : إياك أن تجىء بها من حوض الحمام ؟

أما معجزة الشيخ احمد الكبرى فهى تلك التى صنعها بصورة قصر أنس الوجود وقد تركته هو وتركت المبيضين بالمنزل ونجوت بنفسى الى مدينة أخرى فرارا من ربكة الأثاث المشتت الذى لا يطاق معه قرار . فتجلت هنا عبقرية الشيخ احمد التى تخلف كل ظن وتخرق كل حد وتخرج عن كل تقدير . لقد خطر لى أنّ أقصى مايستطيعه الشيخ احمد من إعجازه المعهود فى هذه الحالة أن يضع الصور فى غير مواضعها منحرفة نحو اليمين أو نحو الشمال وصاعدة إلى الأعلى أو هابطة إلى الأسفل ، فقيدت مواضعها بمسامير لا تتحول وأوصيت المبيضين أن لا يخلعوا المسامير عند

طلاء الجدران ، ولكن أين يذهب بى سوء الظن بأفانين هذه العبقرية التى تهوى أبداً أن تداعب الظنون وتتخطى الآماد عما تحيط به الأفكار والأوهام ؟ فقد عدت من غيبتى القصيرة فوجدت الصورة والحق يقال فى مواضعها تماما بلا انحراف ولا تحريف ، ولكنى وجدت أنس الوجود مقلوبا يقع فيه النيل موقع السماء وتقع فيه السماء موقع النيل !!

وانما يبدو لنا مدى هذا الاعجاز إذا علمنا أن الشيخ احمد من أهل ذلك الاقليم الذى قام فيه أنس الوجود ، فلو كانت « الرؤية » وحدها كافية لتصوير أثر من الآثار لكان الشيخ احمد أولى من المصور الكبير « هدايت » بتصوير ذلك الهيكل غيبا بلا معاينة ولا استحضار !!

وللشيخ احمد ملكة نادرة فى نسيان الاسماء ثم تحريفها وتصحيفها عند التذكر أعجب تحريف وتصحيف .

فاذا تكلم « راشد » مثلا بالتلفون فى غيبتى ثم سألته : من الذى تكلم ، فمن المستحيل أن يكون المتكلم راشداً وانما هو « منشة » على التحقيق أو التقريب !

وينتهى « جاماتى » عنده الى « جماد » . . والشجاعي الى رجل من « كوم الشقافة » . . والطناحى الى الصنافى . . وذو الفقار الى زعفران ! . . وقس على ذلك سائر الأسماء

قلت : ياشيخ احمد . ارحنى أراحك الله بالكتابة ، وأنت بحمد الله تعرفها على الاقل خيراً من معرفة الكلام ، فاذا تكلم أحد فاكتب ولا تعتمد على الذاكرة بعد الآن

وحضرت الى المنزل فسألته : هل من أحد تكلم ؟

قال : نعم . تكلم أربعة

قلت . وهل كتبتهم عند ما تكلموا ؟

فقال لى نعم ، وأحضر لى الورقة فاذا فيها البيان الشافى على هذا النحو الوجيز . إذ ليس فيها إلا هـذه السطور الأربعة سطرا فوق سطر وهى :

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم . . .

ولما تنازعنى الغيظ والضحك من هذا البيان الذى لا بيان فيه ، وهـذه الكتابة التى خير منها الكلام وخير منها النسيان بدأ عليه العجب والاحتجاج ، وعلمت أنى المخطىء لا الشيخ احمد المعصوم من الخطأ على طريقته العكسية الواضحة . فانى حين أقول للشيخ أحمد . « إذا تكلم أحد فاكتب . . . » فليس

ينبغى لى أن أنتظر غيرما فعل ، فقد تكلم أحد فقال أحد تكلم وأعاد الكرة كلما عادت الكرة . فأين الخطأ وأين المخالفة يامنصفون ؟ .

هذه أمثلة يعرف أخواننا الذين خبروا الشيخ احمد نظائر من طرازها البديع ، والظريف فى أمره بعد ذلك أنه جاءنى يوماً يستأذن فى « أجازة » شهر للسفر الى البلد على غير عادة

فسألته . وفيم هذا السفر الغريب ؟

قال : يا أستاذ أنهم يوزعون الآن تعويضات الخزان . وأقاربى وأهل البلد يخشون الغبن وخطأ الحساب ، فأرسلوا يستقدمونى ويلحون على فى شهود التوزيع

قلت . ومن لها غيرك يا شيخ احمد ؟ سافر على بركة الله .. كان الله فى عون البلد الذى أنت هاديه وألبق من فيه .

* * *

والشيخ احمد كما علم القارىء ليس بسجان ولا موظف فى السجن ولا زميل فيه ، فما الذى زج به فى هذا المأزق المكروه ؟

الذى زج به فيه أننا تركنا له البيت وحده أنا وأخى يوم كنا كلينا معتقلين ، وقد ظل عمدتى الوحيد فى كل ماله علاقة بتدبير شىء فى المنزل ، أو إحضار شىء منه حتى انتهت الشهور

التسعة ... ولا حاجة بى الى أن أقول انه لم يقلع خلالها عن ذكائه البارع ولا عن تزويدنا بالأعاجيب من « وحائده » وأفانينه

فقد استطاع الشيخ احمد بذكائه الثاقب وتجربته السنين الطويلة أن يعلم أننى أتناول الغذاء نحو الساعة الثانية و لا أغير هذا الموعد إلا لسبب عارض ، ولكنه لم يستطع أن يعلم أن مواعيد السجن غير مواعيد البيت ، ولم يستطع أن يصدق السجانين حين قالوا له إن الساعة الثانية عشرة هى موعد الغداء عندهم ، لأنه لا يصدق إلا مايسمعه من الأستاذ !

وتعبوا فى إقناعه بغير جدوى ، وعالجوا إفهامه أن «العنبر» يقفل عند الظهيرة وأن الموظفين المنوط بهم رقابة السجن ينصرفون فى هذه الساعة ، وهو لا يفهم ولا يزيدهم على أن يقول : «إن الأستاذ لم يتناول غداءه قط فى الساعة الثانية عشرة وقولوا ماشئتم فأنا لا أصدق لكم كلاماً حتى أسمع من لسانه ! » وهيهات ذلك إلا باذن وموعد زيارة وكتابات وردود

وكان السجانون قد عرفوا الشيخ احمد وخبروا منهاجه فى فهم الأمور ، فولعوا بعناده واستثارته ، وأنذروه يوماً لئن لم يحضر غداً قبل الساعة الثانية عشرة ليدخلنه السجن ولا يخرجن منه بعدذلك أبداً

ولم يحفل الشيخ أحمد بوعيدهم ولم يتقدم لحظة عن الموعد الذى اختاره لحضوره. فلما دق الباب كان السجانون على أهبة القبض عليه ، واتفق ثلاثة منهم على استدراجه وجذبه إلى داخل الباب ، فأخذوا بيديه وشدوا عليه وهو يستعيذ بالله ويقاوم بقوة الجبارين وقوة الخائفين ثلاثة رجال ليسوا بالضعاف ولا بالهينين.

والشيخ أحمد لا يعلم أن دخول السجن إنما يكون بتحقيق وأمر بالقبض أو حكم من القضاء وإثبات فى الأوراق والسجلات ، بل كل ما يعلمه أن من جاوز عتبة البناء المرهوب فهو مسجون لا فكاك له حتى يشاء السجان !

فماذا ينتظر ؟ أينتظر حتى يتغلب عليه هؤلاء الظلمة العتاة ويوقعوه فى الفخ الذى ليس بينه وبينه إلا شبر واحد أو شبران اثنان ؟

لا وحق الأولياء ومشايخ الطرق أجمعين ! لقد حصلت بركتهم ونفخوا فى عضلات مريدهم وربيبهم حتى حار السجانون من أين له كل هذه القوة التى دافعهم بها مجتمعين . فلم يستطيعوا أن يزحزحوه شبراً أو شبرين ، وأفلتوه وقد غلبوا ضحكا ،

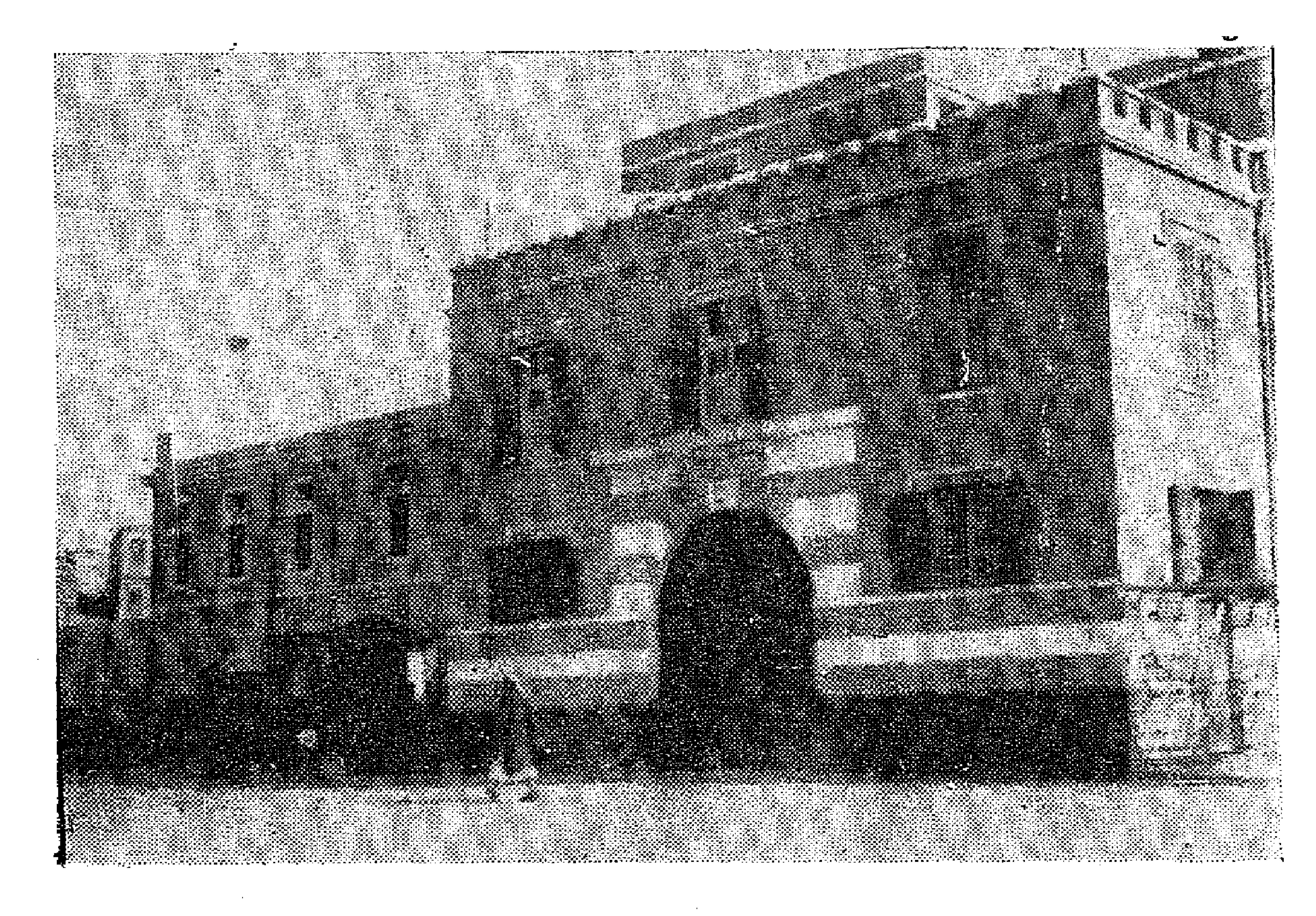
فانطلق كالسهم فى ميدان القلعة لا يلوى على شيء ولا يصدق بالسلامة !

ولـكن هل عدل عن الموعد وأقلع عن العناد ؟

معاذ الله ومعاذ الذكاء . . . لم يعدل ولم يقلع ولم يزد على أن يدق الباب فى الأيام التالية ويضع الآنيـة على مقربة منه ، ثم يرجع هو إلى حيث يضمن النجاة ويأمن الظلمة العتاة ! ولم يزل كذلك حتى بلغه عنى مصداق ما يقول السجانون

وعلى هذا جرى فى إحضار الملابس لموعد الحـمام ، فهو لايحضرها إلا أيام الحمام فى البيت ، ولا شأن له بما يقولون عن مواعيدهم ومواعيد البخار الذى لا يدار فى أيام الجمع ولا يختلف عن الأوقات المرتبة له على حسب الحاجة إليه ، وظل على عناده حتى أبلغته مواعيد الاستحمام كما أبلغته مواعيد الطعام

ولا تسل عن المشقة فى تعريف الشيخ أحمد بالملابس اللازمة حين يدعو الأمر إلى التدرج من الملابس الثقيـلة إلى الملابس الخفيفـة بين الفصول ، فالتفرقة بين القميص الصوفى الأحمر والبرتقالى والرمادى عنده من المشكلات المعضلات ، وهو مع ذلك لايتورع عن طلاء ما يلقاه من تمثال أو صورة عندى بالألوان التى تروقه كلما تقشرت طبقة منها واحتاجت إلى طلاء . . . فتلك فنون



مدخل سجن مصر

لا يحجم عنها الشيخ أحمد ولا ينتظر إذنى فى عملها ، ولا يحتفل بالتفكير فيها أقل احتفال ، وإذا ضحك أصدقائى الفنانون صانعو تلك الصور أو تلك التماثيل من فنه فى التلوين والتظليل فماذا يعنيه من ضحك النـاس المغرمين بالضحك من كل شىء ؟ لقد تعود منهم أن يضحكوا حين يصنع الشىء وحين يصنع نقيضه ، فليضحكوا ما بدا لهم ماداموا لا يقطبون ولا يغضبون

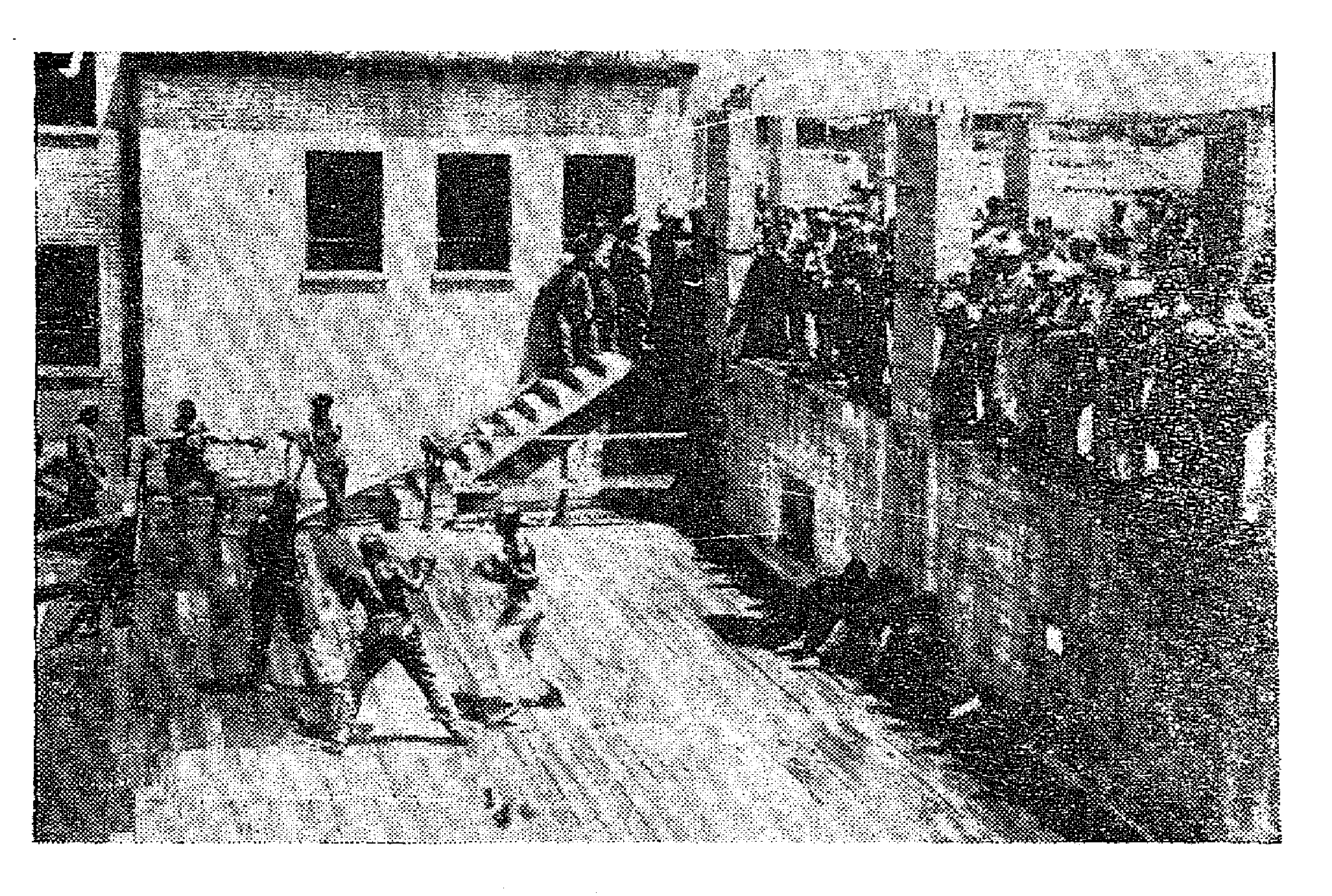
لـكن بدائع الشيخ أحمد ليست كلها مضحكة ولا كلها سليمة ، فربما كان منها ما يميت وما يغيظ . وقد جاد علينـا بواحدة من هذه البدائع القاتلة فى السجن ثم اكتفى بها ولم يشفعها بثانية ، ولله الحمد

فأنا أتداوى من عوارض البرد بالماء الساخن أنغمس فيه بضع دقائق ثم أسرع إلى لبس البرنس فى الصيف أو البرنسين معاً فى الشتاء بغير ونا. ، فاذا أبطأت ساءت العاقبة وجنيت جريرة هذا الابطاء زكاماً قد يلازمنى الأسابيع ، وقد يتجاوز الزكام إلى ما هو أشد وأقسى

فلما كان يوم من أيام الحمام خرجت من الحوض الساخن والتمست البرنسين والملابس فاذا الشيخ أحمد قد نسى أن يصلح بعض أكمامها وتركها مقلوبة تارة ومعدولة تارة أخرى ، وهذه

هفوة صغيرة ولكنها كافية .. ! ! لأنى شعرت بالقشعريرة تسرى فى أوصال جسمى ورعدة البرد تملأنى ، فأسرعت إلى الحوض الساخن مرة ثانية حتى عاودنى الدفء وشملتنى الحرارة ، ولكن الوقت الذى قضيته فى الحوض كان أطول مما يطاق ، فلم ألبث أن خرجت منه حتى غشينى الاغماء ، ولو أدركنى فى الماء قبيل ذلك بلمحة عين لكانت هى القاضية

وإن نسية من هذه النسيات التى يتقنها الشيخ أحمد لكافية لتوديعه مدى الحياة ، لولا أمانة عزيزة تشفع له وإخلاص وثيق يزكيه ، وطول خدمة مذكورة تكافىء هذه النسيات



ساحة الملاكمة فى بعض سجون امريكا

التسلية فى السجن

لو تمت « تعليمات » السجن بحرفها فى معاملتنا نحن المحكوم علينا فى قضايا النشر والصحافة ، لـكان معنى ذلك أنى قضيت تسعة شهور صامتاً لا أنبس بكلمة واحدة ، إلا أن تـكون هذه الكلمة سؤالا أو جواباً لموظف من موظفى السجن فى عمل من أعماله الرسمية ثم ألوذ بالصمت «البوذى» الطويل عا كفاً عليه ليلى ونهارى بلا صلاة ولا قربان !

لأن إدارة السجن أوصدت على كل مسجون فى قضية صحفية أو قضية من قضايا النشر باب حجرة منفردة

وأمرت أن ينفرد كل منا فى أوقات الرياضة فلا نتلاقى بمكان واحد ، ولا يمر أحد منا على حجرة الآخر

بل أمرت أن يكون ذهاب كل منا إلى المستشفى لمقابلة الطبيب أو اللجنة الطبية فى موعد غير موعد زملائه

وعلى هذا كنا فى «سجن انفرادى» كالذى يعاقبون به السجناء الأشقياء ، ونحن لا ندري ولا إدارة السجن تدرى . وكنا أسوأ حالا من شرار المجرمين لأنهم يجتمعون فى ساعة الرياضة عشرات عشرات ، ويجتمعون فى المصنع بضع ساعات ، ويجتمعون فى حجرة النوم خمسة خمسة أو عشرة عشرة أو عشرين عشرين حسب اتساع الحجرات

وهذه نقيضة أخرى من نقائض السجن وأعاجيبه ، وهو كمصر فى رأى هيرودوت موطن النقائض والأعاجيب

ومهما يكن من زهادة الانسان فى اللغو والـكلام ، وفى إخلاده إلى العزلة والسكون فليس السكوت تسعة شهور بالأمر المعقول ولا بالأمر الهين ... وأى سكوت ؟ إنه السكوت لغير عبادة يتعزى العابد بسلامها وثوابها ، وانه السكوت مع الفراغ من العمل ، ومن النظر إلى الدنيا ، ومن ضروب السلوة جميعها إلا القراءة ومراقبة النمل على الجدران !

لقد كنا نرى بعض المحبوسين من الموسرين القادرين على استئجار الحجرات المفروشة أثناء التحقيق يهجرون تلك الحجرات لانفرادها وعزلتها ، ليشتركوا مع غيرهم فى حجرة واحدة ينامون فيها على الأرض بغير فراش إلا الحصير من الليف الخشن ، ويعملون بأيديهم فى تنظيف الأرض وغسل الآنية كل صباح ويؤثرون ذلك على السرير وحشايا القطن ، والراحة من الخدمة وامتهان النفس فى الغسل والتنظيف ، لأنهم يستطيعون الـكلام هنا بغير عقوبة ، ولـكنهم يعاقبون اذا سمعهم الحارس يكلمون جاراً لهم من النافذه أو فتحات الباب حين ينفردون فى حجرة معزولة

وقد كنت أنا من المشهود لهم «بحسن السير والسلوك» عند السجانين ورؤسائهم الموقرين ؟ لأننى كنت لا أهتم بفتح باب الحجرة ، ولا أسعى للتحدث الى أحد ، ولا أحاول الخروج أو المرور من غير مكانى المألوف ، ومع هذا تخطىء ادارة السجن اذا هى ظنت أنى أستحق شهادتها بحسن السير والسلوك كل الاستحقاق - فلو أننى حوسبت بالعدل والقسطاس المستقيم فى عرف النظام الأعوج ، لخسرت كثيراً من الدرجات فى تلك الشهادة

فالحق أننا نتكلم ونتلاقى ونتسامع الأخبار على قصد وعلى غير قصد ، وإن كان ذلك كله فلتات لا تخفف من قيود « السجن الانفرادى » المفروض علينا إلا بمقدار يسير

أما شرار المجرمين فقد كان مباحاً لهم كل ماهو محرم علينا ... فما هو إلا أن توصد عليهم الأبواب نهاراً ، حتى يتجمعوا للعب بحجارة « الدومينة » أو بحجارة النرد أو ما شاءوا من الألعاب وضروب التسلية . وقد يسأل سائل : « ومن أين لهم حجارة النرد أو الدومينة ؟ أتراهم يهربونها من خارج السجن كما يهربون التبغ والنقود ؟ » ألا فليعلم هذا السائل اذن أنه يسىء الظن ببراعة السجناء ، فانهم قد برعوا فى صناعة هذه الحجارة داخل السجن حتى صنعوها من لباب الخبز الساخن وهم فى حاجة اليه ....

فاثبتوا بذلك أنهم يعرفون كيف يجدّون إذا هموا باللعب أو مخالفة النظام ، وأثبتوا بذلك أيضا أن اللعب أحب الى الانسان من الطعام

وليس يحلو اللعب للسجناء بغير رهان . فاذا كان نقد أو تبغ أو طعام ممنوع فذاك هو الرهان المفضل على هذا الترتيب ، وأن لم يكن واحد منها فلا رهان بعد هذه المتع المشتهاة أحلى وأشهى من الضرب الوجيع والمبالغة فى الايجاع اظهاراً للقوة والتذاذاً بالسطوة ، وربما كانت لذة الضرب الكبرى عند السجين أنه يمنحه القدرة على التغلب والتعذيب وتوقيع العقاب ، فى مكان لايزال فيه مغلوباً معذباً خاضعاً للعقاب .

أما الليل فالظلام يحول دون اللعب بالنرد والدومينة ، ولكنه لايحول دون اللغط والغناء والعربدة وكل مايحلو لسكان الحجرة ماداموا فى أمان من أعين الحراس وآذانهم ، وهم على الأكثر فى أمان !

***

وكانت تسليتى بالليل قبل أن تسمح ادارة السجن بادخال النور الكهربائى إلى حجرتى أن أستمع إلى لغط اللاغطين حتى يهـــدأ : فأسمع مصارحات السجناء باسرار حوادثهم ومراوغاتهم تارة ، وأسمعهم يمثلون روايات التهريب وإخفاء

الممنوعات تارة أخرى ، وربما كان من هذه الروايات المضحك والفاجع والمقزز والمثير للسخط والنقمة ، وربما كان منها مايستمر ليلة كاملة ويشترك فى تمثيله حجرات ثلاث بعضها فوق بعض ، وكل منها في دور مختلف من أدوار العنبر . وأصلح هذه الروايات للتمثيل فيما أذكر رواية اشترك فيها أربعة أطفال ، ومهرب كبير من عتاة المجرمين ، وسجين من سجناء المحاكم المختلطة . فأما الأطفال — وهكذا يسمونهم في السجن وإن بلغوا الثامنة عشرة — فكانوا فى الدور السادس أى الدور الأوسط ، وأما المهرب فكان فى الدور السابع وهو أعلى من السادس ، وأما سجين المحكمة المختلطة فكان إلى جانبي فى الدور الأرضى أى الدور الخامس الممتاز بالأطعمة الخاصة وشيء من التيسير فى المعيشة .

وبدأت الرواية باتفاق بين المهرب والأطفال من جهة ، وبين الاطفال وسجين المحكمة المختلطة من جهة أخرى ، وفحوى الاتفاق أن يدلى الاطفال بخيط من خيوط الصوف التى ينزعونها من غطائهم أحيانا لتوصيل الرسائل والمهربات ، فيربط فيه السجين فى الدور الارضى صرة صغيرة تحتوى قطعتين من ذوات القرشين وقليلا من الحلوى ، وعندما تصل هذه الصرة إلى الأطفال ينادون المهرب فيسقط إليهم خيطاً قد ربط فيه

الصرة التى تحتوى لفائف التبغ المطلوبة ، وإنما وثق الطرفان بأمانة الاطفال فى هذه الرسالة لأنهم أطفال مخلصون لا يعرفون الخباثة ، ولا بد من توسيطهم بين البائع والشارى على كل حال لأنهم متوسطون بينهما بحكم المكان الذى لا يتحول . فاطمأن البائع والشارى الى الصفقة وبات كل منهما يمنى نفسه بليلة سعيدة : فالبائع يتلمظ شوقاً إلى الحلوى ويترقب ثمن البضاعة التى يعانى مايعانى فى سبيل تهريبها واخفائها ، والشارى يحلم بالتدخين ويعد الأنفاس فى انتظار أنفاسه الهنيئة ؛ أما بقية الممثلين فى الرواية — وهم الأطفال — فلم يكونوا عند حسن الظن أو عند سوء الظن بهم فهما فى هذه الحالة سواء ، ولكنهم أضمروا النية على شيء آخر وقرروا فيما بينهم أن ينوبوا عن الطرفين البائع والشارى فى الاستمتاع بالتدخين والحلوى والقروش جميعاً . . . وهكذا كان .

فلما أسقطوا الخيط إلى سجين المحكمة المختلطة المجاور لى لم يقصر الرجل فى ربط الصرة ، وهمس لهم أن يرفعوها فرفعوها وهم يغالبون الضحك ، والرجل لا يستريب بضحكهم ولا يرى فيه إلا أنه من مرح الأطفال حين يلهون بأمثال هذه الألاعيب .. ثم لبث الأطفال يضحكون هنيهة وانتظروا ريثما يتحققون من محصول الصرة ويطمئنون إلى نجاح الحيلة من ناحية الشارى ،

ثم نادوا المهرب فما توانى دون أن أجاب على الفور باسقاط الحبل وفيه البضاعة النفيسة ، ثم مضت لحظة . كنت أسمع فى خلالها همس الاطفال وضحكاتهم المخنوقة وشجارهم الأخوى على تقسيم الغنيمة فيما يظهر ، فلما لم تصل اللفائف إلى سجين المحكمة المختلطة ولم تصل القروش والحلوى إلى المهرب ، ناديا على الأطفال فى وقت واحد وهما حذران متوجسان ، ولم يخطر لهما أول وهلة أنهم قد غدروا بهما ، وإنما خطر لكل منهما أن يرتاب فى صاحبه ويسأله على الرغم مما فى رفع الصوت من المجازفة والتعرض للعقوبة والمصادرة ، فاذا بكل منهما يقسم أغلظ الأيمان على بره بوعده ويحرق الارّم غيظا من أولئك الصبية الملاعين !! وأكد لهما الصدق فيما يقولان سكوت الصبية الملاعين وانفجارهم بالضحك كلما غلبهم وأعياهم أن يغالبوه ، وانقلب النداء شتما ووعيدا والحافاً شديداً . ولا فائدة لكل أولئك ولا جواب غير الهمس فالضحك المخنوق فالقهقهة الداوية من حين إلى حين ، فلم يبق للرجلين إلا أن يتجرعا غصة اليأس ويستعيضا الله فيما كانا يحلمان به من لذة وهناءة ، وسكتا وهما كظيمان مقهوران .

لكن الرواية لم تنته عند هذه النهاية ، وانما انقضت فترة

قضاها الأطفال فى سرور وفرح بالغنيمة ونجاح الألعوبة ، ثم انبعث صوت جاد أو متكلف للجد من حجرتهم ينادى المهرب مرة بعد مرة ، فخف المهرب الى الجواب ، ووثب الى النافذة كأنه حسب أنهم ندموا على غدرهم وفكروا فى رد الأمانة اليه . فقال متودداً : « ما بالك يافلان ؟ لم كنت لا تجيب ؟ » فضحك الغلام الخبيث وقال : « كنت نائماً » . فارسل المهرب عليه عشرات من التحيات لأبيه وأمه وصاح به : « أو تنام فى غمضة عين ؟ ومن ذا الذى كان يضحك ويقهقه منذ هنيهة ؟ » ثم أخذ فى ملاطفته وعاد يسأله : « ماذا تريد ؟ هل أسقط لك الخيط ؟ قال الغلام الخبيث : « نعم .. وتسقط معه عينا » أى كبريتا باصطلاح السجناء ... فادرك المهرب أنهم يعبثون به ويكايدونه ! وقد كانوا حقاً يكايدونه ويبالغون فى المكايدة ، لأنهم كانوا قد دخنوا اللفائف جميعاً ، وأشعلوها بالشرار الذى ينقدح فى خيط الصوف من ضرب الأرض بصفيحة الرقم المعروفة هناك « بالدوسيه » . فلم تكن بهم حاجة الى الكبريت ولا حاجة إلى النداء على المهرب من أجله ، ولكنهم حرصوا على الاستمتاع باللعبة الى آخرها ، وتركوا صاحبهم يفرغ ما عنده من السباب والتهديد ، وهم يمرحون ويمزحون .

وتلك رواية من روايات التهريب التامة لم يقاطعها أحد دون تمامها الى الفصل الأخير منها كما يحدث أحيانا فى أمثالها . ومسرح السجن غير ضنين باشتات من هذه الروايات التى نشهدها نحن ليلة ويشهدها غيرنا ليلة أخرى ، ولكنها لا تنقطع عن شهودها المتفرقين فى معظم لياليه .

* * *

وتيسرت لى القراءة طرفا من الليل بعد دخول النور فى الحجرة فكنت اقرأ حتى أمل الصفحات فألهو بمراقبة النمل على الجدران ويطيب لى هذا النوع من اللهو لأننى استأنف به أياما من الطفولة كنت أقضيها فى هذه المراقبة . وأكاد أصدق يومئذ أننى أعالج ضرباً من الطلاسم التى كان يعرفها سليمان عليه السلام

وذاك أن تلميذاً من أصحابنا فى المدرسة كان يقول لنا إنه يحفظ قسما يتلوه على النمل ويرسم له خطا فلا يتعداه... ومن عصى القسم وحاول تعدية سقط وحلت به لعنة سليمان

واحتلنا على صاحبنا التلميذ حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضىء فتحصل المعجزة . . . . وقـــد رأيناه فعلا يحز للنمل خطاً على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط أو يسقط دونه ،

وجربنا نحن القسم فصحت التجربة ، وأيقنا برهة أننا نملك سراً من أسرار السحر المتصرف فى خلق من خلائق الله . حتى خطر لنا يوماً أن نرسم الخط ولا نتلو القسم ، فما راعنا إلا أن تصح التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر ولكننا أسفنا على السحر الذى فقدناه !

ومن ذلك اليوم ونحن نمتحن النمل بالخطوط لنعرف كيف « يفكر » فى اجتياز العقبات واللف حول الدوائر والمربعات ، وكنا نحيطه بدائرة مفتوحة ودائرة ثانية مفتوحة من جانب آخر ونحيط الدائرة الثانية بدائرة ثالثة لا فتحة فيها ، ونراقب كيف يهتدى الى الفتحات فى خروجه حتى يصل الى الدائرة الكبيرة وكيف يهتدى الى هذه الفتحات بعينها حين يرتد عن الدائرة المقفلة ، ونكرر هذه التجربة عشرات المرات ، فلا نرى نملة واحدة « تفكر » فى الرجوع الى طريق الفتحة التى تركتها منذ هنيهة ، فانتهى بنا الأمر إلى أن فقدنا إعجابنا بذكاء النمل الموصوف كما فقدنا السحر أو الوهم الذى سلطنا على هذه المخلوقات ... وساءنا أن نعلم أن هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء انما تعمل بغير « تفكير » ! كأنها من الآدميين !

* * *

وكانت التسلية بمراقبة الآدميين ميسرة كالتسلية بمراقبة النمل على الجدران ، ولكن أين هم الآدميون الذين يستحقون المراقبة داخل السجون ؟

إنهم أرقام كما وسمتهم ادارة السجن ولم تظلمهم كثيراً فى هـــذه السمة ... فقد يمر بك المئات بعد المئات من تلك الأرقام دون أن يبرز من بينها رقم واحد بشخصية إنسانية وملامح نفسية ، لأن « التفاهة » لعنة غالبة على مجرمى « سجن مصر » إلا النادر الذى لا يقاس عليه ، ومن كان منهم ذا « شخصية وملامح نفسية » فالأغلب أن يجيئه ذلك من طريق الجنون أو الشذوذ النافر ، خلافا لسجناء طرة وأبى زعبل الذين يجتازون بسجن مصر فى انتظار الافراج بعد زمن قليل ، فان « الشخصيات » بين أصحاب الجرائم الكبيرة أكثر عدا من « شخصيات » السرقة الخسيسة والعدوان الوضيع ، وقد رأيت من هؤلاء وهؤلاء نماذج قليلة سأرجع الى الكلام عنها فى بعض هذه الفصول

على أن الانسان يراقب الناس كما يراقب جميع الأشياء داخل السجن وهو « بنصف نفس » كما نقول فى أحاديثنا العادية ، أو يراقبهم وهو ينوى التأجيل كمن يدخر الزاد المستطاب لساعة فى المستقبل غير الساعة التى هو فيها ، فينظر اليهم وكأنما

بينه وبينهم مسافة أشهر وأيام ، ويمتلىء بالمشاهد والتجارب وكأنه الجمل فى الصحراء يختزن الماء فى جوفه حتى يشربه مرة أخرى الشرب الذى ينتفع به ويشعر بريه ، وربما ازدحم وعيه الباطن بالتجارب كأقوى وأثبت ما تكون التجربة ، ولكن وعيه الظاهر لن يبرح كالجاهل أو المتجاهل الذى لم يسمع إلا بنصف الخبر ولم يشارف التجربة إلا من مسافة قصية

الزيارة أو برج بابل

كان التعجب صعباً على آبائنا الأولين على ما يظهر ، لأنهم حصروا عجائب هذه الدنيا فى سبع لا أكثر ، وحسبوا من هذه العجائب « برج بابل» الذى كان سكانه لا يتفاهمون لأنهم يتكلمون بلغات كثيرة

وكل بيت على الأرض هو « برج بابل » عجيب يأوى الناس منه إلى مكان واحد ، ولا يتفاهمون فيما بينهم وان تكلموا بلغة واحدة . لأنهم يفترقون فى ألوان الحياة أبعد ما يختلف إنسان من إنسان : بين امرأة ورجل ، وشيخ وطفل ، ومهموم ولاعب ، وقديم وحديث ، ولا توجد أسباب للافتراق بين عقل وعقل وشعور وشعور أبعد ولا أوسع من هذه الأسباب التى تجتمع فى بيت واحد

. كل بيت هو «برج بابل» لا يحتاج الى أكثر من «قاموس واحد » ليصبح أعجوبة من تلك الأعاجيب التى أحصاها آباؤنا الأقدمون على أصابع يد واحدة وأصبعين اثنين من اليد الثانية !

ولكنى أحسب أن برج بابل يحتاج الى صورة هزلية تمثله كما نمثل بعض الناس فى الصور الهزلية بأنف أطول من أنوفهم

الطويلة ، أو رجل أقصر من أرجلهم القصيرة ، كلما تعمدنا المبالغة التى تعيننا على إبراز الحقيقة

ولا أحسب أن فنانا يجد للبرج الدائر صورة هزلية أظرف وأصدق من ذلك المكان المعروف فى كل سجن بقفص « الزيارة »

لأنه المكان الذى يتكلم فيه الناس بلغة واحدة

ويتكلمون بأعلى مافى وسعهم من زعيق وصريخ

وتصغى إليهم على مسافة ثلاثة أشبار فلا تفهم ما تسمع ولا هم يفهمون ما يسمعون

وثق أنهم لا يتكلمون فى الفلسفة ، وما أنت فى ذلك بحاجة إلى توكيد

وثق أنهم لا يصطنعون الألغاز والمعميات فى التعبير كما يصطنعها المتخاطبون أحيانا بالأصفار والرموز

ولكنهم يتكلمون فى أبسط الأمور ، ويجتهدون غاية الجهد فى التوضيح والانصات

ومع ذلك كله لا يتفاهمون بالكلمات كما يتفاهمون بالظنون والاشارات

واذا شاء لك حسن الحظ — أو سوء الحظ — مرة واحدة

أن تشهد قفص الزيارة عرفت سر هذه العجيبة ، وعرفت أنها كسائر الأسرار من أبسط الأشياء ، لأنها الشيء الذى لا يكون غيره ، وهكذا ينبغي أن يكون

أربعة أقفاص يقابلها من الجانب الآخر أربعة أقفاص مثلها على مسافة أشبار ، وفى كل قفص رجل أو اثنان أو ثلاثة ، وأمامهم جميعاً دقائق محدودات يقولون فيها كل ما أعدوه للقول فى شهور أو أسابيع ، ويحب كل منهم أن يقول كل ما عنده وأن يسبق الآخر إلى إفراغ ما فى جعبته ، ويتواصى كل منهم قبل دخوله الى القفص أن يخفض صوته ولا يغطى على صوت جاره

ولكنهم لا يبدأون حتى يختلط بينهم الكلام وتأخذهم العجلة فاذا هم من حيث لا يشعرون قد انتقلوا من الهمس إلى زعيق المصابين بالصمم المغلق ، وإذا بالسامع من وراء الجدار يسمع سؤالا عن الزرع وجوابا عن السوق وكلمة عن الأبناء والبنات وكلمة عن الماشية والأنعام ، ولا يدرى ماذا جواب ماذا ولا هم يدرون من السائل ومن المجيب ، إلا أن يرى المتحدثين رأى العين فيفهم بالظن من ملامحهم وإشاراتهم ما يتخاذل دونه الكلام . . . أو أكثر الكلام

وهذه هى الزيارة التى يتشوف إليها المسجون ويحسب

دوره فيها باليوم والساعة ، لا لأنه يسمع ولكن لأنه يرى ، ولا لأنه يعنى كثيراً بمن يراه ولكن لأنه ينفذ بهذه الرؤية إلى العالم الخارجى ولو بعض النفاذ

وعلى هذا الشوق من المسجونين إلى أيام الزيارات لا تجد « مصلحة السجون » سريعة إلى شيء كسرعتها إلى انتحال الأعذار لالغاء الزيارات عامة بحجة المرض تارة وبحجة الوباء تارة أخرى . . . فما هو إلا أن يشاع أن مرضا معديا ظهر فى ناحية من أنحاء القطر حتى ينتهى خبر هذه الاشاعة إلى كل مسجون فى كل زاوية من زوايا السجون ، لأنه يصغى إلى « برج بابل » فلا يسمع فيه لغطا ولا ركزاً ، وما حاجته بعد ذلك إلى مطالعة الصحف ونشرات الأطباء !

قال لى مسجون من مدمنى المخدرات حجبوه فى اللحظة الأخيرة عن زيارة كان يتوقعها منذ أسابيع : انى يوم ساقونى إلى السجن كان فى بيتى اثنان مريضان بالحمى . . . . . فلماذا لم يغلقوا فى وجهى باب السجن ذلك اليوم ؟

قلت : انه لمنطق سليم ! فان الحميات والأمراض وأوبئة العالم بأسره لن تحجب عن أبواب السجن هذا المدد الذى يتدفق كل يوم من خضم المجتمع الواسع ، ولكن للمتهمين والجناة على

ما يبدو من هـذه التفرقة فى المعاملة « خاطراً » عند مصلحة السجون ليس للزوار الأبرياء

وفى حساب بعض السجناء أن « الزيارة » قيراط إذا كان الافراج أربعة وعشرين

قال بعضهم لواحد من أولئك السجناء الذين فجعتهم مصلحة السجون فى بعض هذه القراريط : لا تعـلّم « المصلحة » هـذا الحساب فتعطيك أربعاً وعشرين زيارة و « تأكل عليك » الافراج ؟!

الطعام ومطالب الجسد

أيسر تجربة للمسائل العامة خليقة أن تؤكد لنا صحة هذه الحقيقة المأثورة ، وهى أن المبدأ لذاته ليس بالمهم ، أو ليس بالشىء الذى يستحق الجانب الأكبر من الاهتمام والدراسة ، وإنما المهم قبل كل مهم هو تطبيق المبادىء وتنفيذها ، فان التطبيق فى أيدى المصلحين قد يصلح المبادىء الفاسدة ويقوّم اعوجاجها ، كما أنه قد يفسد المبادىء الصالحة ويعكس مقاصدها اذا هو جرى على أيدى العجزة وأهل الفساد .

فليس الاصلاح اذن منوطا بالقاعدة والنظام وانما هو منوط بضمان التطبيق ، وحسن الرقابة على التنفيذ .

وهذه الحقيقة تسرى على مسألة الطعام فى السجون أشد من سريانها على مسائل الدواوين الأخرى ، لأن الاغراء حاضر والشكوى عسيرة وتحقيقها أعسر ، وخوف السجناء من الشهادة الجريئة خوف غير مستغرب من أناس مهددين مملوكين فى قبضة الحراس والرقباء ، موسومين بالكذب والخداع عند المشرفين عليهم والموكلين بشؤنهم ، موصوفين بضعف الخلق ، وضعف النخوة ، وضعف الغيرة على الحق ، وضعف الابانة عنه ، فاذا همّ أحدهم بالشكاية ثناه ضعفه فأحجم ، واذا ألح عليه الضيم فأقدم بعد وجل وتردد لم يستطع الافصاح ولا إقامة الدليل

ولم يجد من العطف والتشجيع ما يغنيه عن حسن البيان وقدرة الاثبات ، وقد يخذله زملاؤه طلبا للسلامة وإيثاراً للزلفى ومرضاة الحراس والرقباء ، فالحاجة الى مراقبة التنفيذ فى مثل هذه الأحوال أشد وألزم ، والثقة بالمبادىء والنظم أقل ثقة تعهد فى مبدأ أو نظام

ولو سئلت رأيي فى تعديل طعام السجن من حيث المبدأ والنظام لما اقترحت من التعديل غير القليل : زيادة جزء من المواد السكرية وجزء من الفاكهة والسماح فى الشتاء بالمشروبات الساخنة ، وما عدا ذلك فهو غذاء صالح كما هو قائم الآن ، لأنه يقوم على البقول عامة الأسبوع ، والخضر النيئة مرتين فى الأسبوع ، وتستبدل الخضر المطبوخة مع اللحم بالبقول مرة أو مرتين على أقصى تقدير ، وهذا على قلته كاف لحاجة الجسم ناف للضرر الذي يصيب الانسان من نقص بعض الأصناف

لكن الاهتمام جد الاهتمام انما يكون بالرقابة على تنفيذ هذا النظام ، فان العدس قد يكون صحيحاً وقد يكون منهوكا بالسوس ، والخضر النيئة قد تكون ذابلة هزيلة وقد تكون ناضرة جزيلة ، واللحم قد يكون لحم حيوان شائخ أعجف سقيم ، وقد يكون لحم حيوان فتى فاره سليم ، والسمن قد يكون

مغشوشا مخلوطا وقد يكون من اللبن النقى الممخوض ، والخبز قد يصنع من الدقيق النظيف وقد يصنع من الدقيق المشوب بالحصى والتراب ، والفرق كل الفرق ما بين عدس وعدس وخضر وخضر ، ولحم ولحم ، وسمن وسمن ، وخبز وخبز ، وإن كانت كلها فى العنوان سواء.

فالرقابة هنا هى أس النظام ، والحذر من العبث والاهمال هو أولى الأمور باليقظة والانتباه

كذلك المرضى المستحقون للبر والرحمة قد يصلون إلى مكانهم من المستشفى بغير عناء ولا كلفة إذا حسنت الرقابة واستقام الاشراف ، وقد يحرم هذا الحظ من هو أهله ويعطاه من هو غير أهله إذا التوت الأمور واستفاض الخلل والاهمال

ومن الحق علىّ أن أقرر هنا أننى شكوت مرة من بعض الخلل الخطير فلم ينقض يوم على الشكوى حتى أزيلت أسبابها وخيل بين المسىء وما يسىء ، ومن الحق علىّ كذلك أن أشهد لكثير من الأطباء والموظفين فى سجن مصر بالجد والأمانة والاخلاص وبذل الوسع فى تخفيف الشقاء وتلطيف الآلام ، فاذا قضيت هذا الحق وهو فرض لا أنساه فمن حق الضعفاء علىّ أن لا أنسى حاجتهم إلى الرقابة الناجعة ، ولا أنسى سهولة

الاجحاف بهم والقسوة عليهم ، اذا آلت الأمور إلى غير القادرين وغير المخلصين .

***

على أن مسالة الطعام فى السجن — سواء صلح نظامه أو افتقر إلى التعديل والتنقيح ـ مسألة لم تغب عن أذهان الحاكمين ولم يغفلوا عن تقريرها بالمبدأ والقاعدة تارة وتعهدها بالرقابة والاستطلاع تارة أخرى ، ولكن العجيب كل العجب أنهم قد غفلوا وتغافلوا جميعا فى مصر وفى معظم بلاد العالم عن وظيفة جسدية ليست فى صميمها بأقل من وظيفة التغذية وقد ترجح عليها بما لها من الأثر السريع فى الأخلاق والآداب ، ونعنى بها وظيفة الغريزة الجنسية وحاجة الرجل إلى المرأة فى الشهور أو السنين الطوال التى يقضيها بمعزل عن النساء ، فهل فى وسع طبيب أن يجيز تعطيل هذه الوظيفة فى جسد صحيح ميسور الغذاء ؟ وهل فى وسع حاكم أن يزعم أن السكوت عنها أو اسبال الستار عليها كاف لالغائها وكفيل بمحوها واخفائها ؟ وهل فى وسع الحاكم والطبيب أن يرضيا عن شذوذها وتحولها كما تشذ وتتحول فى مئات من الأحوال ينتهى خبرها إلى الحراس

والرقباء ، وفى ألوف من الأحوال لا ينتهى خبرها إليهم وإن كانت فى حكم المعلوم المفهوم ؟

ليس السجناء نساكا ولا رهبانا فيطالبوا بزهد النساك والرهبان ، وليس من الصلاح لهم أن يطالبوا بذلك وهم لا يؤمنون بنية الزهد ولا يستمرئون سلوى العفاف ، ولا يقصدون النسك ولا الرهبانية ...... فمن أعجب الدلائل على كسل العقل الانسانى واعتياده أن يحل المشكلات بالاعراض والتغابى هذه الغفلة السادرة عن المسألة الجنسية فى السجون ، وهى مشكلة لا تحل بالسكوت ولا تحل بالشذوذ ولا بد لها من حل ، وليس من يتصدى لحلها بين الرؤساء المسؤلين كأنما هى شىء غير موجود !

حدث فى بعض الليالى أن استيقظ السجن كله على ضجة هائلة لا يتميز منها صوت بين صليل عشرات من الجرادل والكيزان تتساقط على الأرض أو تصطدم بالجدران ، ويتخلل ذلك صياح المجروحين وعويل المضروبين وزمجرة كزمجرة الوحوش وضحك كضحك المخبولين ، ثم جاء ضابط السجن وفتح الحجرة التى انبعثت منها هذه الضجة فاذا بالذين فيها وعدتهم نحو الثلاثين ممن يسمونهم بالاحداث عرايا متهتكون وإذا

بالحادث كله مسألة من مسائل الشذوذ

ويتكرر هذا الحادث وإن لم تتكرر هذه الضجة، ويبطل الحياء منه لكثرة التكرار والابتذال فيرويه بعض المتهمين على مسمع من السجناء والحراس بصفاقة كأنها صفاقة الحيوان، ومنهم من كان يساق إلى الجلد فينعى على زميله أنه خائن وأنه حانث فى يمينه . . . ولا يحسب أن فى الأمر غير ذلك ما يشين، وربما وقعت هذه الحوادث وفى الحجرة أكثر من خمسة أو ستة، لأن الحياء منها يوشك أن يكون فى حكم المعدوم

ولست أذكر أنني قرأت كتابا واحدا عن ذكريات السجون إلا وفيه إشارة إلى الشذوذ الذى يدفع اليه كبت الغريزة الجنسية، فهو مذكور فى كتاب دستيفسكى « منزل الأموات » وفى كتاب مكارتنى Macrtney« الحيطان لها أفواه» ..وفى كتاب الدكتور هامبلين سميث Homblin Smith عن حياة السجون .... وفى كتاب بلير بيلز Blair Niles عن المسجونين بجزائر الشيطان، وفى كتاب جوزيف فيشمان Fishman عن المسألة الجنسية فى السجون، وفى كتاب فكتور نلسون عن أيام السجن ولياليه، وفى الكتب والمجلات التى عقبت على بعض حوادث الاصلاحيات وسجن جوليت joliet بالولايات المتحدة، وهى كتب تصف سجون آسيا وأوربا وأفريقيا

وأمريكا ولا تقتصر على بيئة واحدة ولا على زمن واحد، فالآفة إذن آفة السجن حيث كان ، والأمر أعم من أن يعالج بالمداراة والنسيان

وقد عولجت هذه الآفة بأساليب مختلفة فى أمم شتى ، فسمحت حكومة الفيلبين للسجين بعد قضاء فترة يسيرة أن ينتقل إلى مستعمرة تأديبية يتصل فيها بأهله وذويه

وقررت حكومة سلفادور أن تسمح لمن تشاء من زوجات السجناء أن تزوره زيارات أسبوعية فى حجرات مستقلة

واعتمدت الولايتان الأمريكيتان ألاباما ومسيسبى Al abama and Mississipi نظام الأجازات بين حين وحين لمن يحسن سلوكه من السجناء ، ولم يختل فى ملاحظة الموعد المضروب لانتهاء الأجازة غير سجين واحد من مئات يقضون أجازاتهم كل عام

وأضافت ولاية مسيسبى إلى ذلك أنها تمنح السجين فترة تجريبية من شهر إلى ستة أشهر إذا استقام فى أثنائها واهتدى إلى عمل صالح يرتزق منه مدت له التجربة سنة فسنة إلى آخر المدة المحكوم بها ، وأعفى من العقوبة

أما فى روسيا فقد عولجت هـــذه الآفة بطريقة لا يمكن أن تقرها حكومة تؤمن بالدين ونظام الاجتماع الذى خرج

عليـــه الشيوعيون . . . قال الصحفي المشهور نيجلي فارسون Negly Farson في كتابه « طريق الفضولي » :

« أخبروني في الاصلاحية التي بظاهر كييف أن تجربة السماح للسجناء — ومعظمهم من القتلة — بالذهاب إلى قراهم إبان الحصاد تجرى على ما يرام ، لأنهم يعودون بلا استثناء . وأمامهم تجربة أخرى وهى أن يأذنوا للسجين العامل في الحقول أن يملي على الحارس أسماء صديقاته البنات في كييف ، فيجيز الحارس واحدة منهن إلى حيث تلقى السجين ، وتدار الظهور وتغمض العيون عند مايوغل الفتى وفتاته في الغاب »

ويقال إنهم يعتمدون على هذه التجربة في محو الشـذوذ الجنسي من السجون . فان بقي منه أثر فكالذي يبقى في المجتمع الطليق بين المطبوعين عليه

إلا أن الروسيين المحدثين قد عالجوا شذوذاً بشذوذ ، وأدنى من ذلك إلى العرف والفائدة أن يباح للسجناء الخروج من السجن في فترات محدودة ، وأن يعتبر إطلاقهم حينئذ مكافأة لهم على حسن السلوك ولا سيما في المسائل الجنسية ، ولا شك أن السجناء يحتاجون إلى ترك سجونهم فينة بعد فينة لمطالب كثيرة غير هذا المطلب ، تنفعهم وتنفع ذويهم وقد تخفف أعباء الزيارات عليهم

وعلى إدارات السجون ، ولعل التجربة تنفعهم أيضاً فيما لا يقع الآن فى الحسبان من تقويم خلق وإحياء عبرة وتجديد ثقة وتشويق الى نعمة الحرية . ومهما يكن فى التجربة من حرج محتمل أو مقطوع به فهو دون الحرج الذى يصيب النفوس والأبدان من إكراه الغرائز وفرض الحرمان أو الشذوذ على من لا يحمده ولا يبتغيه .

الوقت

الوقت أعدى أعداء السجين ، فلو اهتدى إلى طريقة يخلص بها من وقته لاهتدى إلى طريقة يخلص بها من سجنه

الوقت فى كل مكان من ذهب كما يقولون . إلا فى السجن وما شابه السجن ، فهو من رصاص إن أردت ثقلته وبشاعة اسمه ، وهو من تراب إن أردت رخصه ومضايقته ، والرغبة فى كنسه !

الوقت أثقل شىء على « وجدان » السجين وأخف شىء على لسانه : كل دقيقة فيه محسوسة محسوبة ، وكل دقيقة فيه حسبة يراد إسقاطها من الحساب ، وما هكذا يكون الوقت فى غير السجون

سل من شئت بين الوف السجناء عما بقى له من مدة سجنه وثق أنه يغالطك فى الجواب ، وثق أنه غالط نفسه قبل أن يغالطك مرات ، بل ثق أنه لا يغالطك إلا ليستعين بذلك على مغالطة نفسه !

سألت أحدهم كم بقى لك من السنين ؟

فقال ثلاث ، وأنا أعلم أنه قد بقيت له خمس سنوات لا تنقص إلا بضعة أيام . وإنما القاعدة عندهم أن يسقط السنة التى هو فيها والسنة التى يخرج فى نهايتها ، ولا يحسب إلا ما بين السنتين !

ولهم فى تقصير المدة على اللسان أساليب بعضها مصطلح عليه وبعضها من اختراع كل سجين على حسب ذكائه وملكة استنباطه .

سألت سجينا بقيت عليه سبعة شهور : كم بقى عليك من أشهر ؟ فقال : الربيعان والجادان ورجب وشعبان !

قلت أو تخرج فى شعبان ؟

فقال : سأخرج فى عفو العيد ! أى فى آخر رمضان

فهو قد جمع الربيعين والجادين فى اسمين بدلا من أربعة أسماء ، وأسقط شهر رمضان كله كانه لا يعد فى الزمان

وأعرف سجينا كان سيخرج يوم الثلاثاء ، فلما بقى على خروجه ثلاثة أشهر أخذ يحسب المدة الباقية بالأسابيع ويختم الأسبوع بيوم الاربعاء ، حتى إذا وصل إلى الاربعاء الأخيرة لم يحسب ما بعدها وأسقط بذلك ستة أيام

وكان لى جار مررت به أودعه قبل خروجى بيوم ، فقال لى إنه سيخرج بعدى بخمسة عشر أسبوعا . . . وأشار إلى خطوط على الحائط إلى جوار النافذة بعدة الأسابيع الباقية . فعمدت إلى خطين منهما فمسحتهما وقلت له : اننى أسقطت عنك هذين الأسبوعين كرامة لهذا التوديع !! فوالله لقد سر بذلك كأننى

مسحت الأسبوعين فى مدار الأيام ، وشكرنى على هذه النية أو هذه الأمنية ، وأحسبه قد عالج مشقة مرهقة فى إعادة الخطين إلى مكانهما ، لأن هذه الاعادة تبدو له كأنها زيادة أسبوعين !

وعلى هذه المغالطة الشائعة ان تجد سجينا واحدا يجهل الحقيقة أو يجهل عدة ما بقى له من الأيام باليوم ولو كان الباقى عدة شهور ، وسل من شئت منهم على غرة : كم بقى لك من يوم ؟ فاذا هو يجيبك توا بلا تفكير ولا إبطاء . . ! ! وإياك أن تستكثر هذه الأيام أو تظهر بالدهشة والأسف ما يدل على استكثارها وإن كانت كثيرة . بل كل ما يمكن أن تقول فى لهجة الاستخفاف : تهون ! فيقول لك : لا هنت ، أو يكرر الكلمة على مسمعك قائلا : تهون ! تهون !

وإذا دخل الليمان سجين محكوم عليه بخمس سنوات أو نحو هذه المدة قالوا له : إنما أنت زائر ! واحتقروه كما يحتقر ساكن البيت ساكن الخان النزيل ! وأقنعوا أنفسهم بهذه المغالطة أن الخمس السنوات فى الليمان خطب يسير

والشأن فى هذه الخصلة شأن جميع السجناء بلا استثناء عالم أو جاهل وذكى أو غبى ومجرب أو غرير . فكلهم يسوسون مشكلة الوقت على هذا المنوال ، وكلهم يألفون المغالطة هذه

الألفة ، وكلهم يستكبرون ما مضى ويستصغرون ماسيأتى وسوف يأتى إلى يوم الافراج ، وهو يوم محقق الوصول عندهم جميعاً كأنما الموت قدر مؤجل إلى ما بعد وفاء المدة ، أو كأنما الانسان لايخرج من دنياه إلا بعد خروجه من سجنه أو منفاه !

قال الكاتب الروسى الكبير « دستيفسكى » يصف منفاه وسجنه فى سيبيريا : « من اليوم الأول بدأت أحلم بيوم الخلاص ، وجعلت هجيراى أن أحصى ألوفاً وألوفاً من المرات على ألوف وألوف من الطرائق والأنماط مقدار أيامى التى سأقضيها فى المعتقل ، وكنت أفكر فى ذلك دون غيره ، وكل من حرم الحرية فترة محدودة من الزمن فانما يفكر على هذه الوتيرة ، وإنى من ذلك لعلى أتم يقين »

وقال فى وصف الأيام الأخيرة : « لقد نسيت أموراً كثيرة ، ولكنى أذكر — وبالشدة ما أذكر — كم كانت الساعات فى السنتين الأخيرتين بطيئة بطيئة ، وكم كانت الأيام حزينة حزينة ، لايلوح عليها أنها ستقترب من مساء ولا تزال كأنها خضم من الماء ينحدر قطرة فقطرة ، وإنى لأذكر كذاك أنى كنت مفعماً بشوق طاغ إلى البعث والنشور من هذا القبر زودنى بقوة على الصبر والانتظار

والرجاء ، ومن ثم تعودت الجلد والاحتمال وعشت على الترقب والأمل ، وعددت كل يوم عابر . فان بقى من الأيام ألف فقد أشعر بالارتياح لأن يوماً قد مضى ولم يبق إلا تسعمائة وتسعة وتسعون ! »

وهكذا تعتصم النفوس بالمغالطات ، ويصيح المستغرب : هل أغالط نفسى ! كأن الانسان لا يغالط إلا غيره ! وهو نفسه فى الحقيقة أول المغالطين !

يوم الافراج

يوم الأفراج
أو يوم البعث والنشور
أو يوم الحرية

أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذى انتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام ، ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره لم تغتمض عيناه سرورا بلقياه وأوشك أن يطير فرحا بالوصول اليه . . ! وهم على حق فيما يحسبون لو أن الشعور مما يقاس بأمثال هذه المقاييس التى تقاس بها الأحجام والأرقام . . . ولكن الشعور يجرى على منطق غير هذا المنطق وينقاد لأحكام غير هذه الأحكام . فيوم الافراج يوم لا تهتز له نفس السجين بسرور عظيم ولا تقبل فيه على موعد جديد . وسبب ذلك هو بعينه السبب الذى يحسبونه جالبا للفرح واللهفة والتهلل والاغتباط ، وهو أن السجين قد انتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام

يظل السجين ينتظره ويطيل انتظاره ويتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبينه بالأشهر والأسابيع والأيام والساعات ، ويقدر ما يصنعه فيه ويعيد التقدير ويعيد الاعادة

ولا يفكر طوال ساعات الفراغ أو ساعات العمل فى شيء غير هذا التفكير الدائم الدائب الذى يستنفد كل صورة وكل احتمال وكل خيال : حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا بالسجين يراه كأنه وجه قديم طالما رآه وأدمن النظر إليه وعرف ملامحه وقسماته خفية وظاهرة وكبيرة وصغيرة ، ولم تبق منه لمحة واحدة لم يرها ويحقق رؤيتها بدل المرة عشرات ومئات ، فهو منظر من مناظر الماضى السحيق المتغلغل فى القدم والألفة ، وليس بمنظر طريف ولا بموعد جديد

والمساجين ينظرون كل يوم إلى المفرج عنهم ويعجبون لهم ما بالهم لا يطيرون ولا يبتهجون ! ويحسبونهم يتوقرون ويكتمون ما يخامرهم من شعور . حتى إذا جاء يومهم فى الافراج عجبوا لأنفسهم بعد أن كانوا يعجبون الآخرين . . . . وهكذا كان من حظ بنى الانسان أن يستنفدوا السرور بالمتعة التى تطول الرغبة فيها ويطول انتظارها ، فلا يستشعرون السرور الصحيح إلا بانصاف الآمال أو بالمفاجآت التى لا تخطر على البال !

ويخيل إلى أن أبخل البخلاء اذا انتظر مليون جنيه بعد عشر سنوات وهو على يقين من الوصول إليه عند موعد محقق لا خلاف فيه لأصبح هذا المليون وكأنه مبلغ فى الخزانة داخل

فى الحساب ، لا يشعر بالزيادة عند وروده ولا يشعر بفقده قبل يوم الموعد المنظور ، فهو ضائع من حسبانه فى حالتى الترقب والاستيلاء عليه ، وهو أقل من مائة جنيه يغنمها ويشعر بزيادتها ولم يحسب لها ذلك الحساب الطويل

على أن اليوم ـ سواء عددته من أيام السعادة أو من أيام الفتور وقلة المبالاة ـ هو يوم ينطبع فى الذاكرة وينطبع معه كل ما يلازمه من المناظر والمسامع والاحاسيس ، فهو محسوس به إحساسا عميقا شديدا راسخا فى قرارة الوعى والبديهة ، وذلك شىء أندر جدا من المسرات وأندر جداً من الأحزان

واذا أراد الانسان أن يشعر بأغوار هذا العمق فما هو بقادر على ذلك إلا اذا فوجىء فى اللحظة الأخيرة بتغيير فى الموعد أو خروج عن خط الانتظار المرسوم : هنالك يعالج شعور الفقد والشك بعد شعور الاطمئنان واليقين ، ويعلم أن تأخير ذلك اليوم ساعات معدودات هو بمثابة الحرمان المباغت من أعوام لا يحدها الاحصاء . . . وقد رأيت سجيناً يركبه البؤس والكرب والقنوط لأنهم أوشكوا أن يؤخروه يوماً واحداً لخطأ فى المضاهاة بين الأشهر العربية والأشهر الافرنجية ، فلما ردوا له ذلك اليوم الواحد اذا به يشعر بالخلاص منه أشد من

شعوره الأخير بالخلاص من الأشهر والسنوات

جاءنى مأمور السجن عصر اليوم الذى سأغادر السجن فى غده ،وقال لى إنه لا يعلم فى أى ساعة سيكون الافراج ، فيحسن بى أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وإنه لهذا سيرسل لى الحلاق بعد هنيهة ليحلق رأسى ولحيتى التى مضت عليها ثلاثة أيام، ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجين من عندهم على هذا الحال ، لأن رؤية اللحية الطويلة تلقى فى روع الناس أن السجين خارج من مكان يكثر فيه الاهمال وتقل النظافة والنظام

والحلاقون فى السجن هم حلاقون مسجونون يزاولون هذه الصناعة ويحسدهم أصحاب « الأشغال » الأخرى لأنهم يرون أن الحلاقة عمل خفيف لطيف لا مشقة فيه ؛ وكانوا يزوروننا فى الحجرة مرتين كل أسبوع فنسمع منهم قصص السجن بجميع أنحائه لأنهم يطوفون على جميع السجناء ، والعجيب أن هؤلاء الحلاقين على كثرتهم كانوا من المتهمين فى قضايا المخدرات إما بالتعاطى أو بالاتجار ، وكانوا لهذا يعلمون من أخبار الحياة الاجتماعية العالية والوضيعة ما يشوق الاطلاع عليه ،

وقد نسوقهم إلى ذكره أن آثروا السكوت أو خشوا رقابة الحراس .

أما فى هـذه الحلاقة الأخيرة فقد كان يعنينى أن أفرغ منها فى دقائق عاجلة لاننى فوجئت بتغيير نظام الخروج ، وكان لا بد لى من ابلاغ ذلك إلى أخى الذى كلفته أن ينتظرنى بباقات الزهر على مقربة من السجن حوالى الظهر موعد الافراج المعتاد ، وقد كان ضريح «سعد» الذى أعددت له تلك الباقات على طريق «قره ميدان» . وكان يتردد بينى وبين أخى بالرسالة والجواب بعض الموظفين وهم ينصرفون بعد العصر بقليل . فاذا فاتنى أن ألقى واحداً منهم قبل انصرافه فقد اختلف التقدير واختل الحساب ، وقد أزور ضريح سعد عقب خروجى ولـكن بغير أزهار ، أو أزوره ومعى الازهار ، ولـكن بعد أن يبطل معنى هذه الزيارة التى قصدت أن تـكون أول ما أباشر من عمل الحرية

وشاء الحلاق أن يبتلينى فى هـذه الحلاقة الأخيرة بكل ما اشتهر به أبناء صناعته فى أحاديث الغابرين والحاضرين من حذلقة وثرثرة ومضايقة وإعنات

والحق أنى كنت أسمع بهذه الشهرة وأقرأ روايات الرواة عنها فى كتب العرب والأفرنج فأحسبها من مبالغات الهازلين

لأن الله لم ينكبنى قبل ذلك بحلاق ثرثار . أما فى ذلك اليوم فقد عرفت أن الحقيقة أكبر من مبالغات الجادين والهازلين فى بعض الأحايين . وأخذ هذا الحلاق « الظالم » بحقوق جميع المظلومين من أبناء الصناعة !

وضع صاحبنا فى ذهنه أننى خارج غداً وأن الناس سيلقوننى فلا يلتفتون إلى شىء غير « حلاقتى » النظيفة وغير العجب من أن أظفر بهــــذه الحلاقة الفاخرة بين جدران السجون !.. وسيتحدثون ولا يسألون عن شىء فى حديثهم إلا أن يعرفوا إسم ذلك « الفنان » المغمور المدفون فى تلك الغيابة المظلمة ، وسيلبثون منتظرين متشوفين حتى يأذن الله برده إلى حانوته المجهول فيتسابقوا إليه وينبذوا من كانوا يعبثون فى رءوسهم ولحاهم من جهلاء الحلاقين ، ويحمدوا الله ان سعدوا بجلسة تحت يدى هذا النابغة العظيم

وضع صاحبنا فى ذهنه هـذا الخاطر فأحفى غاية الاحفاء وأمعن غاية الامعان ، وطفق يفهمنى أنه ما من عدة يستعد بها الحلاقون فى الأماكن المنتظمة إلا وهو قادر على الاستغناء عنها بحيلة من الحيل وبراعة من البراعات ، ومضى يجرب تلك الحيل وتلك البراعات حيلة حيلة وبراعة براعة ليرينى صدق ما يقول

رأى العين ، وأنا أقرظ وأزكى وأعيد التقريظ والتزكية ، ولا جدوى ولا نجاة

وأخذت أنبهه الى أننى مستعجل وهو لا يتنبه ، وأرجوه أن يسرع وهو لا يزيد على قوله « حاضر » ثم ينساها بعد لحظة ، ويدأب على ما كان فيه كابطأ ما يكون الابطاء وأدق ما يكون التدقيق

وتمللت وهو لا يحفل ، وتأففت وهو لا يكترث ، وظن أخيرا انه فهم لماذا أتململ وأتأفف وان « الدنيا » حر وقد كانت « حراً » حقا لأن الشهر شهر يوليو والساعة ساعة الأصيل ، فلما قلت له بل انى « انتفض » من البرودة ضحك وأغرب فى الضحك وظن انها « نكتة » وأنه وهو « واحد » من أبناء البلد لا يليق أن تفوته هذه النكتة دون أن يوفيها حظها من المزاح والتعليق !

فما العمل ؟ .

كل شيء يمكن اقتضابه إلا أن ينطلق الانسان بوجه نصفه محلوق ونصفه غير محلوق .... فغالبت غيظى وضحكى المكظوم من هذا الغيظ ، واتخذت كل ما يسعنى اتخاذه من هيئة الجد والاهتمام وقلت (انى لا أستطيع أن أصبر فوق ما صبرت ، فاكتف بما صنعت واقنع بما أبدعت ، واجعل همك أن تتركنى

بعد دقائق قليلة على حالة تصلح لمقابلة الناس ، وأنا أتمم البقية غداً فسيكون عندى متسع للاتقان والاحفاء

فاختلج كالمذعور وصاح بى : عيب يا أســـتاذ . . . ماذا يقولون عنـا اذا شهدوا هذه « اللـكلـكة » وهذه العجلة بغير عناية ؟ ؟ أيقولون إننا لا نقدر الاستاذ قدره . . . أم يقولون اننا صبيان فى هذه الصناعة ؟ ؟

وفطنت لما يدور بخاطره وما يمنى به نفسه من ذلك الاعلان المأمول . فاحببت أن أفجعه بعض ما فجعنى وقلت له وكأننى أطمئنه وأهدىء روعه : لا تشغل بالك بهذا يافلان ! اننى لن أبوح لأحد باسمك !.. فعجل ما استطعت وأرحنى أراحك الله ! ؟

فارتعب الرجل وخيل إلى أنه يوشك أن يدق صدره ويلطم خديه ، وبدر على لسانه ما خبأ فى جنانه ، فصاح قائلا : ماذا ياأستاذ ؟ أتحرمنى هذا الشرف وأنا أنازع رصفائى عليه منذ أيام؟ ياضيعة المسعى وياخيبة الرجاء ؟ أتـكتم إسمى كأننى أسأت وقصرت وأنا أقطع يدى وآتى بغاية ما عندى لأبلغ اليوم قصارى الاحسان والاتقان ؟ ؟ . . . لا لا . . ياأستاذ . . كلها نصف ساعة وينتهى كل شىء على مايرام . ولا عليك من اقتراب موعد

الاغلاق فان الحراس لن يضنوا بفتح الباب لى إكراماً لك . . ولا سيما فى عشية الوداع !

وكأنما كان هـذا المتكود ملهما أن يثير قلقى ويذكرنى ما أحذر وأتقى . . . . فان إشارته إلى « موعد الاغلاق » عصفت بالبقية الباقية من صبرى فألقيت بالمنديل الذى ناطه بعنقى وهممت بالخروج إلى فناء السجن فلم يثننى عن انفاذ عزمى إلا أن الخروج على هـــذه الصورة يجمع حولى الحراس والموظفين ، إن بقى أحد منهم إلى تلك الساعة ، فلا يتيسر لى أن أتصل بمن أريد

أشهد أنى شعرت بغبطة الافراج كلها ساعة أفلت من يد ذلك الحلاق «راجى عفو الخلاق» لا عفى الله عنه . . فان حركة اليأس التى اندفعت اليها فى غير عمد ولا روية قد أكرهته على قبول «التضحية» بفنه واتقانه والرجاء فى شهرته وعرفان قدره ، فاستسلم للعجلة والندامة معا وانقلب إلى إبداء براعة السرعة وحذاقة الهرولة بعد براعة التؤدة وحذاقة الاستقصاء والاناة . وتبعنى بعد أن تركته وهو يستحلفنى ألا أنساه ، وأنا أقسم له اننى لن أنساه وان أردت نسيانه . . ثم انتهيت الى فناء السجن وقد تخلف فيه بعض الموظفين عمداً إلى ما بعد موعد الانصراف ، لأنهم قد علموا من الحراس بما

انبأنى به المأمور فانتظرونى ريثما أخرج من الحجرة لعلى أفضى اليهم بنبأ أو رسالة ، وقد تمهدت السبيل فى اللحظة الأخيرة وخلا الجو للمقابلة والكلام ، فاسررت اليهم بما عندى وعلمت بعد ذلك أنهم أدوا الرسالة فى أمان ، بل فى إفراط من الأمان .. لاننى علمت أيضاً بعد ذلك أن أناساً من هؤلاء كان معهودا اليهم أن يتلقوا رسائلى الشفوية وينقلوها إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد .... وأنهم كانوا يوقعون بمن يخلصون فى نقل رسائلى مخاطرين مستهدفين للغضب والعقاب ، ليستأثروا وحدهم بهذا الواجب المشكور المأجور

بت تلك الليلة كما أبيت كل ليلة ، ونمت كما أنام كل ليلة ، وأصبح الصباح فلم أكد أفرغ من تناول الافطار حتى وافانى الضابط فى الحجرة يسألنى : هل أنا على استعداد ؟ ؟ فقلت على أتم الاستعداد إذا شئت أن أفارقكم وأنا بملابس البيت ، اما إذا كرهتم ذلك فليس بينى وبين الاستعداد التام الاخمس دقائق ....

ولاح عليه أنه ينتظر هذه الدقائق وهو مشفق من اغضاب رؤسائه ، لاننى لم البث فى الحجرة الملاصقة لحجرة المأمور الا دقائق معدودات تسلمت فيها ودائعى وانتقلنا بعدها مهرولين إلى سيارة مقفلة داخل السجن على أهبة المسير ، فما هو إلا أن استقررنا بها حتى فتحت

لها الابواب وطارت الى الميدان فالى شارع محمد على وهى لا تلوى على شيء ، وما زالت تعدو بهذه السرعة حتى بلغت سجن الاستئناف ، واسلمتنى اسلاماً جديداً إلى مأموره ، فنقلنى نقلا جديداً إلى حجرة خالية ، واستنزلنى بعدها الى الفناء فى ساعة الرياضة ، وكانت نحو العاشرة ، ولا يزال باقيا على موعد الافراج عند الظهر ساعتان

على أنى لم البث ربع ساعة فى هذه الرياضة التى لا معنى لها فى يوم الافراج غير التزام القواعد والأصول ، وإذا بكبير من موظفى السجون يقبل على عجل ، ويسلمنى ودائعى مرة أخرى ، ويهنئنى « بالفرج » ويتركنى فى كفالة ضابط يصاحبه رجل عملاق من رجال الشحنة الذين يعدونهم لأعمال العنف والتهديد ، ويمضى الموظف الكبير لطيته وأمضى أنا والضابط والعملاق إلى حجرات الموظفين بمحافظة العاصمة من طريق خلفية ، ثم إلى مركبة تهرب بنا إلى منزلى بمصر الجديدة من ناحية شارع فاروق

فى أيام المحاكمة كانت الجلسات تبدأ الساعة العاشرة أو الحادية عشرة وكانوا يحضروننى مع ذلك فى أبان الشتاء القارس قبل الساعة الثامنة وقبل أن يأذنوا لأحد بالدخول الى قاعة الجلسة ، وقد فهمت سر العناية بهذا التبكير ، لأن النيابة كرهت

أن أدخل القاعة وهى مزدحمة فيقف الحاضرون تبجيلا لهذا «المتهم» الذى يراد له الهوان ، كما فعلوا فى الجلسة الأولى

وفى يوم الافراج فهمت سر العناية بهذا التبكير وهو اتخاذ الحيطة للمظاهرات وزحام الاستطلاع

أما الذى لم أفهمه ولا أزال أجهله فهو هذا العملاق المعد للعنف والتهديد ولا حاجة هناك لعنف ولا تهديد : إننى لن أهرب من المركبة الهاربة ولا أخال ان عملاقا واحدا يخيف الجماهير اذا تعطلت المركبة ووقفت فى الطريق ، فلم يبق إلا أنه حكم الصنعة كما يقولون ، وان الشرطة لا يتخيلون لهم مهمة يؤدونها بغير تخويف ، لأنهم لا يكونون شرطة بغير ذلك ! ، وإلا فما الفرق بين المزاملة والحراسة ؟ وما الفرق بين السطوة والايناس ؟

طارت بنا السيارة فى مدينة معهودة غير معهودة ، وشائقة غير شائقة ، كانى أطرأ عليها لأول مرة أو كأننى استذكرها بعد غيبة طويلة ، ولا يمنعنى أن أتلفت اليها تلفت الغريب الطارىء الا أننى فى فسحة من الوقت بعد فترة وجيزة للتلفت والاستذكار

ولا يحضرنى انى التفت الى معلم من معالم الطريق غير مدرسة الصناعة بالعباسية الوسطى . فقد كانت حديثة البناء فسألت عنها

الضابط فقال لى : نعم هى حديثة ، ولم يزد على ذاك

ولما شارفنا المنزل دعوت الضابط والعملاق لتناول القهوة أو المرطبات فاعتذرا ، لأنه حكم الصنعة كذاك !

ولم يمنعنى كل هذا التحوط والروغان أن أعود من مصر الجديدة إلى حيث أنجز البرنامج الذى عولت عليه قبل مغادرة السجن ، فرجعت من حيث أتيت ، وزرت ضريح سعد وضريح ويصا ، وتبين لى أن أخى وأصحابى كانوا يلاحقوننى من مكان إلى مكان ، لأنهم كانوا يعلمون بانتقالنا من كل موضع ومخبأ ، على الرغم من التخفى والاتاهة والاسراع .

وجلست فى المنزل كما كنت أجلس ، ولقيت الأصحاب وسمعت التهنئات . فأما الأصحاب فقد سرنى لقاؤهم بعد وحشة ، وأما التهنئات بالافراج فكنت كأنما أصغى منها إلى حكاية قديمة أو حديث معاد .

هل مضت على آخر جلسة فى هذا المكان تسعة أشهر ؟ لا أظن . . . أو أظن أنها مضت ونسخت نفسها بانقضائها ، فلم أمكث فى المنزل ساعات حتى خيل إلى أننى رجعت إليه ذلك الضحى بعد أن فارقته ذلك الصباح !

بعض الشخصيات

لبثت فى السجن وخرجت منه ولست أذكر من سكانه الذين يستحقون اسم « الشخصيات » غير ثلاثة أو أربعة من أربعة آلاف انسان تحويهم جدرانه ، وهو عدد يساوى عدد الرجال فى عاصمة من عواصمنا المصرية المشهورة

ذاك أن « الشخصيات » فى سجن مصر نادرة.

فالسجناء هناك أرقام فى حساب مصلحة السجون وهم كذلك أرقام فى حساب الطبيعة : كلهم مغمورون فى بحر لجىّ من الضآلة والخسة والتفاهة ، لا يعلو بينهم رأس فوق الغمار ولا تتباين فيهم الخلائق والصفات إلا كما تتباين الموجة والموجة فى بحر هادىء ذليل ، لا تضربه العواصف ولا يعج ولا يلتطم

وهؤلاء « الشخصيات » الثلاثة أو الأربعة الذين أذكرهم من سكان السجن هم أيضا خلقاء أن يغرقوا فى غماره ، ويتواروا فى خموله لولا بعض الغرابة الملحوظة على اثباج ذلك الخضم الواسع من التفاهة والفهاهة .

فالغرابة إذن شفيعهم إلى الذكر والنباهة ! وليس شفيعهم الى الذكر والنباهة مزية إنسانية أو قدرة خارقة أو صبغة مستملحة من ألوان الحياة الفريدة

أحد هؤلاء « الشخصيات » مجنون يتنازعه السجن والبيمارستان

والثانى مجنون أيضا ولكن على طراز آخر من الجنون

والثالث مقعد مبتور الرجلين إلى الفخذين

والرابع - ان كان لا بدمن تحقيق قولة الثلاثة والأربعة - خليط من الجنون والعربدة والمكر والدماثة المصطنعة والجوح الصحيح

وكلهم يسكنون السجن على انفراد ، لأن الجمع بين واحد منهم وزميل آخر فى حجرة واحدة مستحيل

* * *

انى لأتمشى ذات يوم فى فناء السجن إذا بشيطان أسود يقطر منه النفط القذر يعدو هنا وهناك ويفر منه الجند والموظفون

من هذا ؟

هذا هو المجنون الأول نقيب ، ولنسمه بهذا الاسم القريب من اسمه ولا نذكره باسمه المشهور مخافة المساس بهذه الشهرة الحسنة والسمعة المبرورة ! وخشية المقاضاة ورد الشرف والتعويض !

ولماذا صنع نقيب هذه الصنعة الكريهة بنفسه ؟ ولماذا أغرق نفسه فى حوض النفط وهو بغيض إلى الشم بغيض إلى

الذوق بغيض إلى النظر ، غير مأمون على البشرة والحواس والجوارح ؟

مكره أخوك لا بطل !

هجم على المخبز لاختطاف رغيف ساخن ليس من حقه ، فهجم عليه الحراس يوسعونه لكزاً ولكما ويقودونه إلى «سعادة المأمور» ... فخير مايصنعه نقيب فى هذه الحالة أن يقذف بنفسه إلى حوض النفط القذر لحظة واحدة يخرج بعدها كما رأيت شيطاناً مرهوباً يفر منه من كانوا يطاردونه ، ويتقى لمسته من كانوا يوسعونه ضرباً ولا يرسلونه من قبضتهم طرفة عين !

وراح نقيب يصول ويجول ويعـــدو ذات اليمين وذات الشمال ، وكل حارس حريص على كسوته يهرب من وجهه ويستغيث بالسجناء المطلقين فى الفناء لأنهم لا يخافون على كسوتهم كما يخاف الجندى والحارس . . . . حتى شبع نقيب من الصيلان والجولان ، وأنذره ضابط السجن بمسدسه فخضع واستكان .

ويجيئه المأمور الرجل الوقور ويصيح به : ماهذا ياهذا ؟ إننى لا أريد أن أجن معك . . . إننى سأرسلك إلى البيمارستان !! ... فينظر إليه نقيب فى جد لاشائبة فيه من الهزل والمجانة ، ويقول :

معاذ الله يا سعادة البك ! وهل نحن من أهل ذاك ؟

لا سمح الله !

***

ولنقيب مذهب فى تقدير الجرائم والعقوبات يختلف من كل مذهب مأثور بين الناس فى فلسفة الشرائع والقوانين

كان على وفاق مع رجل قصير قمىء من تجار المخدرات محبوس على ذمة التحقيق ، وكان الرجل يستظرف نقيباً ويلطفه بلحوم الدجاج والضأن والديكة الرومية والفاكهة والحلوى والمطبوخات من كل صنف تتسع له ثروة المتجرين بالمخدرات

ويسعى أهل الفساد بين نقيب والرجل فيمنع عنه بره وسلامه وكلامه ، ويهيج نقيب هيجته الغضنفرية الحمارية الجامعة بين الزئير والنهيق ، وهو لا يحتاج إلى أكثر من هذا السبب للغضب والثورة والوعيد

فبعد أن يفرغ جعبته من الشتم والتعيير فى بعض الأيام يسكت كمن يفكر ويتدبر ثم يقول :

من أنت يأيها الحقير ! إننى أمحقك ... إننى أسحقك ..

إننى قد ضربت الدكتور فلانا وهو طول وعرض وقامة وهامة

وأخذت فيه أربعة أشهر . فأنا أقتلك وأنت « شبر نكد » ولا آخذ فيك أكثر من أسبوعين . . . ويشاور القاضي عقله بعد خروجى من المحكمة !

ولو اعتمد المشترعون مذهب نقيب فى تقدير الجرائم والعقوبات لاستغنوا بمتر فى كل محكمة عن كل هذه الأسفار والمجلدات، وكل هؤلاء المفسرين والشراح

***

وتسمع فى هدأة الليل لغطا وحركة ، وتسمع الحارس يقول : من هذا ؟ وأولى به أن يسأل : من هؤلاء ؟

نعم من هؤلاء أولى ، لأنك تسمع غناء عبده الحمولى ، وتقريظ الحاشية حوله ، وهتاف السامعين وضجة الطفيليين الراغبين فى دخول الفرح وغشيان السامر وما هم من المدعوين اليه.

وكل هؤلاء هم « نقيب » وحده بلا مساعد ولا معين

لأن « نقيباً » كما ينبغى أن تعلم يحسن « التقليد والمحاكاة » بعض الاحسان ، ويهوى الغناء من قديم ولا يعجبه غناء بعد عبده الحمولى ومحمد عثمان ، ويضاف اليهما يوسف المنيلاوى مع التحفظ والعطف وزم الشفتين !

وتسأله كل مرة يتحدث فيها عن مجالس الطرب القديم فى عهد اسماعيل : كم عمرك ؟ فيصر فى كل مرة على أنه لم يتجاوز الأربعين!

مع كل هذا الجنون عاقل !

أو مع ما فيه من العقل مجنون !

***

وإذا تكلم نقيب فليس من يلجئه إلى السكوت ، وإذا سكت فليس من يلجئه إلى الكلام .

ولكن الخبثاء من سجناء المحاكم المختلطة — وأكثرهم تجار لبقون — يعرفون كيف يخرجونه من الصمت العنيد إذا احتاجوا إلى مناوشاته وعربداته وأغانيه ، وهم أحوج مايكونون اليها فى غياب المسارح والسهرات

هو يهــذر ويحكى عن أهله وينسى بعد ساعة واحدة كل ما قال .

وأنه لفى صمته العنيد ذات ليلة إذا بصائح يناديه : كيف حال بهية !

وإذا بصوت ينفجر من ناحية الحجرة التى فيها نقيب : بهية من يا ولد ! ؟

فيجيب التاجر الخبيث : بهية أختك ! بهية ذات الشعر الأصفر ! بهية ذات العينين النجلاوين ! بهية ذات الردفين الثقيلين ! بهية التى تلبس الرداء الأخضر ! بهية التى تسكن فى باب الشعرية !! بهية يا حسرتى على بهية !!

وكل هذه أوصاف سمعها التاجر وسمعها « العنبر » كل ليلة من الليالى الغابرة من فم نقيب دون غيره ، ونسيها نقيب.

ويصدق صاحبنا ما سمع ، ويثوب إلى نفسه وكأنه يناجيها : « صدق من قال لا أمان للنساء ! » . . . . والعجيب أن « بنت الكلب » أوشكت أن تدفعنى إلى الموت لأنها شكت إلى رجلا يغازلها ويسد المنافذ عليها ، فبطشت به ولم ينقذه من يدى إلا عمره . . . . لك حق يا فلان . اذهب فاصنع بها ما تشاء !!

ثم يرجع ثائراً ويندم على هذا « التفويض » وينادى التاجر : إياك يا هذا أن تصنع بها شيئا : والله بعمرك !! والله الحكاية كلها مشوار من هذه الحجرة التى أنا فيها إلى بيتك ومن بيتك إلى هذه الحجرة التى أنا فيها . . . . وعوض الله عليك فى عمرك : أسمعت ؟

نعم سمع ، وسمع العنبر كله ، وهذا هو المقصود

***

وأعترف أنى قد عرفت من نقيبنا هذا شيئا كثيرا من طبيعة الشاعر القديم ، أو الشاعر المداح الهجّاء : عرفت أن كل ما يتوخاه ذلك الشاعر فى فنه هو أن يقول لممدوحه إنى أريد أن أرضيك بالثناء وترضينى بالعطاء ، وهى صفقة معقودة علانية بعلم المادح والممدوح والسامعين ، لا حاجة فيها إلى الصدق ولا إلى المعاشرة ولا إلى الاخلاص ولا إلى شىء غير البضاعة والثمن ، والبضاعة هى المدح الظاهر والثمن هو العطاء الظاهر ، وكان الله يحب المحسنين

نقيب لم يكن يعرف أحدا من سجناء المحاكم المختلطة الذين كانوا يبرونه بالحلوى والجبن والادام ، ولكنه يعرف دائما أن الذى يعطيه قطعة من الحلاوة الطحينية أو شريحة من الجبن رجل سرى يملك سيارة فاخرة تخطف الهواء ويركبها الراكب وهو حذر على طربوشه أن يطير . . . وأنه يملك قصراً باذخا فى بعض الضواحى دخله هو وأكل فيـــه ولم ينفذ إلى حجرة استقباله إلا بعد أن عبر خمسة بوابين ، ويعرف أن الحرير أبخس ما يلبسه الخدم فى ذلك القصر الباذخ فضلا عن السادة والسيدات ؛ وهو يجهر بهذه المعرفة ليلة العطاء العلنى المشهور المذكور بين سائر السجناء . . . وينادى أحد الزملاء ليحدثه جهرة بهذا كأنه يعنى أن

يكشف له سراً فى غياب الممدوح . . . . لأنه لا يخاطب الممدوح وإنما يخاطب سواه . . . . فالكلام إذن لا تمليق فيه ولا تزوير ولا محاولة إرضاء أو جزاء

نعم . . . ويعرف نقيب تماما فى اليوم التالى أو اليوم الذى بعده أن ممدوحه هذا بعينه صعلوك بن صعلوك . لا يملك سيارة وانما هو « حمار سبخ » لا يساوى شلنين !! ولا يملك قصرا باذخا وإنما هو كوخ فى عرب المحمدى ينبنى وينهدم فى يوم !! ولا يلبس الحرير وانما هى ملاءة الفرش القديمة يرقعها ويفصلها جلاليب ... والظريف أن يكون جلباب الممدوح أو المهجوّ ذلك اليوم من نسيج منقوش بالمربعات التى تنقش بها ملاءات السرير . . . . فالشاعر على هذا لا ينسى بعض الحقائق وبعض المناسبات !

* * *

ذاك هو المجنون الأول

أما المجنون الثانى فقد كنا نعجب له كيف اتسع وقته لزيارة البيمارستان وهو لا يفارق السجن إلا ليعود إليه ، وكيف يفارق البيمارستان إذا دخله مرة وهو أقرب إلى أهله من أهل السجون

قال لى هو انه قضى فى السجن أكثر من عشر سنين ، وقال

لى أحد الحراس انه قضى فيه ثلاث عشرة سنة كلها أحكام مقطعة بين ثلاثة أشهر أوستة أشهر أوسنة ، وهو يعيد نفسه إلى السجن كلما أخرجوه عند انتهاء أمده على الرغم منه ، وما عليه إلا أن يخطف ما يخطف أو يضرب كل من صادفه أمامه صالحاً « للانضراب » ثم يدع للمحكمة والشهود والمجنى عليه أن يحلوا اللغز ويكشفوا عن سر الجريمة بين مضروب لا يعرف الضارب وضارب لا يعرف المضروب

وقد سرى إلى قرارة خلده شعور صادق بضرب من « الملكية » للسجن بحق المكث الطويل فيه ، فسمعته يوما يتحدث مستخفا غاية الاستخفاف عن مأمور السجن الذى مضت عليه فى الوظيفة سنوات ، ويذكره باسمه وهو يناجى بعض أصحابه قائلا : من هو « فلان » المأمور هذا ؟ ! . إننا لا نسمع به إلا هذه الأيام ! !

وهذا المخلوق — وليكن اسمه عساسا على طريقتنا فى تسمية نقيب — هو النشوز بعينه لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يراقب أحواله ويستقصى أخباره .

وجهه ناشز وصوته ناشز وأخلاقه وأعماله نشوز فى نشوز ، ولكن المدهش فى نشوزه انه على استواء واحد كأنما ينشز بقاعدة مرسومة ، فاذا غنى اليوم وأعاد الأغنية بعد عشرة أيام فوقع

النغمة فى الأذن واحد وهى مع ذلك ناشزة فى كل مرة على نحو مختلف من النشوز . فليس التشابه فى أغانيه كتشابه الاسطوانة التى تعاد والدور الذى يضبط ويدار على لحن واحد ، ولكنه مع ذلك تشابه لا يحكيه أحد سواه

ولا ريب عندنا فى أن عساسا هذا على حظ من مزاج الشاعرية يناسبه ويماثله فى الهبوط والتفاهة ، فهو اذا احتواه الليل بين أركان حجرته رفع عقيرته وخاطب تلك الحجرة الجافية معدداً لها شواهد حبه ودلائل غرامه ، وانها هى التى تعلق بهاو تعلقت به ففيها مشتاه ومصيفه وإليها منقلبه ومآله ، ولديها معتصمه وملاذه من المأمور وغير المأمور ، وعليه نظافتها وجلاؤها ، وبينه وبينها ما ليس بين الزوج وزوجه من رحم ومودة

ومن أجل هذه الأغانى سماه السجناء والحراس « عساس الأوضة » لأنه يسمي الحجرة « أوضه » ولا يسميها زنزانة كما تعرف فى قاموس السجون

وللجراية عنده أنشودة أخرى تجارى حركة التوزيع ساعة تفريق العدس والخبز عليه وعلى الزملاء : قرب ياشاويش . . . وهات الجراية !! واغرف ياشاويش . . . وفرق الجراية . . . . وانصفنا ياشاويش . . . . واشبعنا من الجراية . . . . وهكذا من

قافية الشاويش إلى قافية الجراية حتى ينتهى التوزيع وينصرف السجناء وهم يرددون ما لقنهم إياه شاعرهم عساس

وتمام العلم بنشوز هذا المخلوق الغريب أن تعلم أنهم نقلوه من « أوضته » العزيزة عليه الى قسم التأديب فاراد أن ينتقم من المأمور فماذا صنع ؟؟ عمد الى الصفيحة التى تناط الى صدره وعليها رقمه فشحذها وقطع بها إحدى خصيتيه !

* * *

أما ثالث الثلاثة أو الأربعة الذين يستحقون اسم « الشخصيات » بين أولئك النكرات فليس هو بمجنون ولا بمخبول ولا بشاعر أو فنان ، ولكنه رجل مقعد يمشى على خشبة ذات مكر يدفعها بمقبض فى كلتا يديه كما يدفع السابحون زوارق الحمام

ولا يخاف السجناء مجنوناً فى ثورته كما يخافون ثورة هذا المقعد الكسيح

ويخطىء القارىء إذا فهم من قولنا « ثورته » ان الرجل يثورها مهتاجا مغلوبا على أمره كما يثور الغاضب المحنق ، أو الطائش الأحمق .... كلا ! فان الرجل ليثور لأنه يريد أن يثور ، بل

يحتـاج الى أن يثور ، فثورته فى كل مرة لا تأتى إلا بروية وتدبير وتقدير

وجلية أمره أنه سجين مخدرات وأنه فى السجن ما زال يتجر بالممنوعات والمهربات ، وأهمها وأنفسها التبغ والـكبريت ولعله يكسب فى السجن أضعاف ما يكسبه من السموم المهربة وهو طليق

فاذا استضعفه أحد من عملائه وظن أن هذا العاجز الـكسيح أهون من أن يحسب له حساب أو يؤدى له حساب — فالويل للأحمق المأفون من عاقبة جهله وغروره : انه لمغلوب ولو كان أقوى الأقوياء ، وأنه لن ينجو من الجروح والرضوض وإن لم يظفر به الـكسيح كل الظفر ولم يهزمه كل الهزيمة ، فبينما الخصم القوى الواقف على قدميه لا يناله فى مقتل ولا مأمن إذا بذلك الـكسيح يتناول كل مانالته يداه ويقفز ويندفع ويكر ويفر كأنه الديك الصائل لا تمسكه العين فى حركة واحدة أو موضع واحد ، وسلاحه فى كل ذلك تلك الخشبة التى يجلس عليهـا وذلك المقبض الذى يحمله فى كلتا يديه ، ولا تنتهى المعركة إلا وهو أربح الخصمين وأسلم المضروبين

هـــذا المخلوق هو مثال القوة التى تخلقها الحاجة إليها ، واستضعاف الناس لمن لا يحسبونه من أهلها

***

بقى الرابع المرشح لتكملة العدد ، ولك أن تحسبه أو تسقطه من عداد هـذه النخبة المباركة ، فلست أعرف له من معالم « الشخصية » إلا أنه يضطرك إلى رؤيته ويفرض عليك وجوده . فاذا أقبل شبح من بعيد فى غرارة من غرارات العقاب المفتوحة عند الكتفين فغالبا مايكون الشبح المقبل هو «الون» بعينه . . . . . وإذا رأيت كسوة حمراء من كسى التأديب تقترب فى عنف وعجلة فاقرب الاحتمالات إلى الصواب أن « الون » هو صاحب تلك الكسوة الحمراء ، وإذا لم يكن بين المصطفين للجلد فهو لا محالة بين المصطفين للتحقيق أو بين المصطفين للفحص الطبى فى غير مرض ولا انحراف مزاج ، وإذالم تسمعه مغنيا فى هذه الطبقة فهو ولا ريب صائح أو صاخب فى الطبقة المجاورة ... فليس هو « شخصية » لأنك تحب أن تراه أو يهمك أن تراه ، ولكنه « شخصية » لأنك لابد أن تراه وإن كرهت مرآه

وأظرف عربداته الكثيرة أنه طرأ له يوماً من الأيام أن

يصطنع الخرس والصمم فلا سمع ولا جواب ، ولج فى اصطناعه حتى حاول أن يعمى الأمر علىّ وهو يزعمنى من أصدقائه وخلصائه ولا يدارى عنى ما يداريه عن الضباط والحراس المبغضين ، فلما سألته : أصحيح أنك لا تسمع ولا تتكلم ؟ لمعت عيناه ولم ينبس بحرف ، وتباله بسيماه كما يتباله الصم المغلقون ، الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يفقهون

ولم تمض دقائق على هذا التمثيل الغبي حتى سمعته فى غرفة العمليات الجراحيـــة يردد بعض العبارات الانجليزيه بأعلى صوته ، ويجيب الطبيب على كل سؤال يلقيه عليه ، وإنمـا الفضل فى شفاء خرسه المصطنع للدواء المرقد الذى خدره به الطبيب فحجب إرادته وأطلق لسانه ! !

* * *

وقد أظلم السجن اذا أنا جزمت بأن الأربعة الذين أجملت وصفهم هنا هم كل من فيه من ذوى « الشخصيات » والغرائب الملحوظة ، فغـاية ما أجزم به أنهم هم كل من أذكر الآن ممن رأيت ، ولعل لهم أشباها ونظراء لم أرهم والحمد لله ولا أسف على مافات

ذلك إننى بليت بمن لقيت من هؤلاء الأربعة بعد خروجى

من السجن بلية لا يؤسف على فواتها ، فمنهم من كان يلقانى فى شوارع العاصمة فلا يدعنى دون أن يتقاضانى ضريبة لقائه ، ومنهم من كان يحيينى تحية الزملاء الرصفاء كلما بصر بى فى ناد أو طريق ، وعرف أولهم « النقيب » طريق دارى فحاصرنى فيها مراراً لا يبرح الدار اذا حضر حتى أخرج أو أعود ، وأسوأ ما فى الأمر أنه لم يكن يحضر إلا وهو سكران طافح معقود اللسان مسترذل الحديث

قلت له آخر يوم وقد دعوت له الشرطى : يا نقيب ! إنك تحتاج الى سجن لتكون ظريفاً وقانا الله من ظرفك وأنت سجين ومن مضايقاتك وأنت طليق . فاذهب ولا تعد ، وإلا أعدتك مع هذا الشرطى الى حيث لا أراك

وذهب ولم يعد حتى الآن ، لا أعاده الله

الجريمة والعقاب

سومرست موام Somerset Maugham كاتب انجليزى مستفيض الشهرة له مؤهلات كثيرة لمعرفة الطبيعة الانسانية ، لأنه كان طبيباً ومريضاً فى وقت واحد فهو عليم بما فى الانسان من ضعف وما يشتمل عليه من اثرة وعطف . وهو كاتب قصاص يتتبع « الشخوص » وينقب عن أسرار الطبائع وبواعث الأخلاق ودخائل الآداب المصطلح عليها بين الطبقات . وقد اشتغل « بالجاسوسية » أيام الحرب العظمى فعاشر الساسة والمغامرين وعرف كيف يُستدرج الناس الى افشاء الأسرار والوشاية بالأعداء والأصدقاء والوقوع فى اشراك المطاردين والرقباء ، وكيف يزل أصحاب الدعوات والمثل العليا من أجل مطمع أو مظهر أو شهوة أو غواية ، وكيف يستهين بالحياة البشرية من ليس له غرض فى اتلافها غير المال والمتاع ، وكيف يقبل الشرفاء استخدام الاثمة والاخساء عند ماتعن لهم المصلحة العامة أو المصلحة الخاصة ، وكيف يتوارى الناس وراء دعوى الوطنية أو الغيرة على الحضارة والحرية لقضاء اللبانات وشفاء الحزازات والترات ، وقد زاده علما بطبيعة الانسان انه ساح فى الغرب والشرق سياحة متفرج وسياحة مستطلع مستخبر . فاعانته هذه المؤهلات كلها مع الفطنة الوقادة والبديهة الحاضرة على استكناه

النفوس والنفاذ الى ماوراء الظواهر واختبار دعوى الخير والشر في الصالحين والطالحين على حد سواء

هذا الرجل الكيس اللبيب يروى بلسان مدير الشرطة فى بعض البلاد الاسيوية قصة عن «أسرة موقرة» مؤلفة من أب وأم اشتركا فى قتل زوج المرأة السابق ولهما بنت هى بنت الخليل وان كانت منسوبة إلى الحليل ، وقد حدثت جريمة القتل لأن المرأة حملت وزوجها السابق لا يشك فى سفاحها إذا ظهر عليها الحمل . فدبرا الجريمة قبل أن يفتضح السر ونجحا فى إخفائها ، ثم انقضت الأيام والسنون والأسرة تعيش فى سلام لا يعكر صفوها معكر ولا ينغص عليها العيش تبكيت الضمير ولا يجترىء أحد على الايماء اليها بمسبة أو اهانة

ويقول سامع القصة لمدير الشرطة سائلا

لا أظن الزوجين قد نسيا ما اقترفا ؟

فيجيبه المدير : « انى لن أدهش اذا كانا قد نسياه . فان الذاكرة الانسانية قصيرة الأمد قصراً يُستغرب ، ولئن سألتنى رأيى من الوجهة الفنية لم أحجم أن أبوح لك بأنى لا أعتقد أن الندم لاقتراف الجريمة يرين ثقيلا على ضمير انسان اذا كان على يقين من كتمان سره »

ويعود سامع القصة فيسأل : « ألا تشعر بشيء من النفرة أو القلق وأنت جالس الى هؤلاء القوم ؟ أنا لا أرغب فى انتقادك ولكنى أرانى مضطرا أن أكاشفك بانى لن أحسبهم مستطيعين أن يكونوا أناساً لطفاء ! »

فيجيبه المدير : « إنك فى هذا لأنت على خطأ . إنهم أناس جد لطفاء ، وهم معدودون هاهنا بين خيار القوم . والسيدة كارتريت على الخصوص « معتبرة » أنيسة المحضر ، ومن عملى أن أمنع الجريمة وأن أعتقل المذنب بعد وقوعها ، ولكن خبرتى بالمجرمين أكبر من أن تدعنى أظنهم على الجملة شراً من الآخرين . وقد تدفع الضرورات رجلا دمثا الى اقتراف جرم محظور فيكشف وينال الجزاء ، إلا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثا كما كان . نعم ان المجتمع يعاقبه على انتهاك قوانينه وهو حق لا نزاع فيه ، ولكن أعمال الانسان ليست فى كل حين هى دليل باطنه الخفى وجوهره الصميم . ولو انك زاولت صناعة الشرطى كما زاولتها عهداً طويلا لرأيت أن المهم فى أمر الانسان هو كيف يكون لا كيف يعمل ، وماذا هو لا ماذا صنع .... ومن دواعى الغبطة ان الشرطى لا شأن له بافكارهم وانما شأنه كله متصل باعمالهم ، ولو كان الامر على غير ذلك لاختلف جد الاختلاف

ولعاد أصعب مما هو الآن بكثير »

وخلاصة الرأى الذى يذهب اليه الكاتب الخبير ان كثيراً من المعاقبين يشبهون كثيرا من غير المعاقبين ، وان بعض الجناة اذا أفلتوا من الجزاء لم يميزهم أحد بوسم خاص أو علامة ظاهرة بين سائر الناس

ولهذا الرأى أنصار كبار بين رجال القانون المؤهلين لدراسة هذه الأمور ، وفى طليعتهم المحامى الأمريكى النابه « كلارنس درو » (١) صاحب كتاب « الجريمة وأسبابها ومعالجتها » وهو حجاة فى هـذا الموضوع لسعة علمه ووفرة القضايا الجنائية التى درسها ودافع عن جناتها ، والقضايا الجنائية فى أمريكا مدرسة زاخرة ابالمعارف والعظات لا يتاح نظيرها فى الأقطار الأوربية أو الشرقية ، لأن جرائم الحضارة الحديثة فى أمريكا قد بلغت من الاتقان والتنوع مبلغ الفنون المحكمة التى تستنفد جهود المحققين والقضاة والمحامين

وفى وسعنا — بل الواجب علينا — أن نفهم هذا الرأى دون أن يتقاضانا فهمه أن نتبعه ونسترسل معه الى نتائجه البعيدة فمالاشك فيه اننا نستطيع أن نؤمن بهذا الرأى ونستطيع أن

(١) Clarence Darrow

تؤمن معه بالحقائق الضرورية لمنع البغى على المجتمع ومنع البغى على الجناة والمسيئين

فمهما يقل القائلون فى تساوى بعض المعاقبين و بعض الناجين من العقاب فهنـاك حقيقتان ليس فيهما خلاف بين الباحثين فى موضوع الجريمة والعقاب : أولاهما ان المجرمين الذين يشبهون سائر الناس يستحقون أن يعاقبوا لأنهم مسؤلون عن أعمالهم ، والثانية ان المجرمين الموسومين بالشذوذ الخلقى يحتاجون الى عناية الطب كما يحتاجون الى علاج الشريعة

* * *

يرى « كانت » انعقاب المجرم واجب وحق ولو لم تـكن له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الاضرار بالأضرار . فان العدل البديهى يأمر بان من يؤلم يتألم ومن يسىء يساء ، والضمير الانسانى يأبى أن يرى شقياً معذبا ومن يشقيه ويعـذبه يغدو ويروح آمن السرب مستريح البـال ، ولو لم يتماد فى الايذاء والتعذيب

أما أصحاب الفقه الحديث فلا يحسبون من عمل المجتمع أن يتولى تطبيق العدل البديهى على هذا المنوال ، وانما يطلب المجتمع عقاب المجرم لاصلاحه أو للوقاية من شره ، وكل ما عدا ذلك عبث لا يفيد ولا يليق

فمنذ أصبح عقاب المجرم حقاً للمجتمع ولم يعد حقاً للمعتدى عليه أصبح العقاب لمحض الانتقام والتشفى رذيلة لا تليق ولا تؤدى إلى المصلحة الاجتماعية ، وليس يليق أيضا أن تعاقب المجرم لردع غيره وإرهاب الناس من مثل مصيره ، فان هذا معناه كما يقول المنكرون لمذهب الردع والتمثيل إنك تعذب زيداً لاصلاح خالد ، وهذا إن صح أن العبرة بمصير المجرمين تردع أحداً ممن تسوقهم ضرورة الطبع أو ضرورة الحوادث إلى الاجرام ، وهو فى اعتقاد هؤلاء المنكرين غير صحيح

فاذا كان الغرض من العقاب هو إصلاح المجرم وحماية المجتمع فهل السجن على أحسن نظمه ومقاصده مما يحقق هذه الغاية ويكفل للمجرم الصلاح وللمجتمع الحماية؟

الحق أن فكرة « السجن » عتيقة جداً ظهرت فى تاريخ الانسان قبل أن تظهر فكرة العقاب للاصلاح والوقاية الاجتماعية بآلاف السنين . فقد كان السجن فى بداية الأمر مكانا لاعتقال الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت ، ثم أصبح مكانا للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين فى طريق ذوى السلطان ، ثم جاء العصر الحديث فحسبنا أن استبقاء السجون واتخاذها مكانا للعقاب وتنفيذ القانون على سنة من سلف أمر لا محيص

عنه ولا ضير فيه ، مع أن قليلا من التدبير يرينا أن « فكرة السجن » قابلة لكثير من المناقشة والمراجعة فى العصر الحديث. وإن الأمم قد يأتى عليها يوم تستغنى فيه عن السجون بتة وتعدل عنها إلى طريقة أصلح منها لتنفيذ القانون ، وربما كان هذا اليوم غير بعيد بالقياس إلى ما غبر من تاريخ السجون

أما إذا اتخذنا السجن « مستشفى » لعلاج المرضى المطبوعين على الجريمة فمن الواجب إذن كما يقول « كلارنس دارو » أن نجعل توقيت العلاج فى السجون كتوقيت العلاج فى المستشفيات.

فنحن لا نرسل المريض إلى المستشفى ليبقى فيه سنة وإن شفى فى ثلاثة أشهر ، أو ليخرج بعد أيام وإن كان شفاؤه يحتاج إلى أعوام . فلا بد إذن من وسيلة لعرفان الوقت الذى يحسن فيه الافراج عن السجين بغير ارتباط سابق بموعد معروف لا يقبل التعجيل والارجاء

إن تجربتى للمجرمين « المطبوعين » الذين يصلون إلى السجون دلتنى على أنهم قلما يكونون إلا واحداً من اثنين: فأما رجل معطل الحس بآلام الناس وقد يكون معطل الحس بآلام نفسه وأقرب الناس إليه، وإما رجل مختل الارادة لا يضبط نزواته فى ساعة الهياج أو ساعة الاغراء ، وكلا هذين لا تنفعه السجون الحاضرة على أحسن ما ارتقت إليه من

تنظيم وتعليم ، وإن حاجته إلى العلاج والعناية النفسية لأشد من حاجته إلى العقاب والايذاء ، لأن الإيذاء يوسع الهوة بينه وبين المجتمع الانسانى وهو محتاج الى من يقرب المسافة بينه وبين أبناء جنسه ويمحو من نفسه انه عدو يحارب الأعداء ويحاربونه

ومن اليوم إلى اليوم الذى تلغى فيه السجون ونهتدى فيه إلى طريقة أصلح منها لحماية المجتمع وتنفيذ القانون يخيل إلى أننا لانملك وسيلة للاصلاح فى هذا الصدد خيراً من استخدام الرقى العلمى والتقدم الصناعى فى مطاردة الجريمة وكشف أسرارها قبل وقوعها وبعد وقوعها إلى زمن طويل ، وقد نصل إلى المستطاع من تحقيق هذا المقصد إذا رفعنا طبقة الشرطة وزودناهم كما نزود المحققين بالأساليب العلمية التى تعين على مطاردة أعداء المجتمع وتعقبهم قبل الاجرام فى دور النية والشروع ، وبعد الاجرام فى دور الهرب والتضليل

والآن تكفى لمسة للرصاصة التى فى داخل المسدس لاثبات علامة يسهل رسمها وتحقيق شخص اللامس الذى استخدم الرصاصة بمضاهاة الرسم على أصابع المتهمين ، ويقال إن بعض العقاقير إذا عولج بها المتهم حجبت إرادته وأفضى بدخيلة سره ، ومن هذه العقاقير الكلورال والسكوبولامين (Scopolamine and Chloral) وهى التى يقال ان مكتب التحقيق فى روسيا

إستخدمها لاقناع المتهمين فى قضايا « الخيانة العظمى » بالاعتراف وإفشاء أسرار المؤامرات المزعومة. وقرأت فى مجلة الفورم Forum وصفا لأساليب صناعية ونفسية يهتدى بها المحقق إلى المتهمين بغير خطأ كثير ، ومنها أداة كهربائية يقبض عليها المتهم ويواجهه المحقق بالأسئلة المريبة وغير المريبة فتسجل الأداة مقدار اضطرابه وافراز جلده للعرق ولو كان يسيراً، لأن هذا الافراز يضعف مقاومتــــه لتيار الكهرباء فيظهر الأثر على الفور فى موضع التسجيل . . . . قال هنرى مورثون روبنسون كاتب المقال :

سألت الاب « سمرز » أن يجرب معى هـذه الاداة فعمد الى تجربة خلاصتها أن يطلعنى على عشر ورقات من ورق اللعب وأن أنتقى واحدة منها فى ذهنى ولا أبوح بها لغيرى ، فاخذت ورقة القلبين الاثنين ثم عرضت علىّ الاوراق واحدة بعد واحدة والاب سمرز يسألنى اهذه ورقتك ؟ فلما عرضت علىّ ورقتى تعمدت الانكار وقلت لا وأنا أراقب موضع التسجيل على الاداة لارى الاثر الذى يظهر عليه ، وقد حاولت جهدى أن أحتفظ بسكينتى وقلة اكتراثى ولكن الاداة الكهربائية سجلت اضطرابى اليسير جدا مرة بعد مرة حتى اضطررت الى الاعتراف »

وأشار الكاتب الى أسلوب « نفسى » يعتمد على تداعى

الخواطر للكشف عن سرائر المتهمين ، فاذا كانت التهمة سرقة مائة دولار فى محفظة سوداء من درج مكتب وضع المحقق خمسين أو ستين كلمة وتلاها واحدة بعد واحدة على المتهم وطلب منه أن يعقب على كل كلمة بغير روية . فاذا تريث المسؤل أكثر من ثانيتين ونصف ثانية وهى المدة الطبيعية للتعليق فهناك وجه للريبة ، واذا تليت عليه بين الكلمات كلمة مائة دولار ثم كلمة درج ثم كلمة مكتب ثم كلمة محفظة ثم كلمة سوداء وأطال الوقوف عند كل منها فهو إذن يعلم شيئاً يريد إخفاءه ويحفل من ظهوره

هذه أساليب مفيدة لا يحسن إهمالها وترك البحث فيها ، ولكن ينبغى مع التوافر على دراستها أن نذكر : « أولا » أن العقاقير الحاجبة للارادة قد تمكن المحقق من إملاء الاعتراف على المتهم وإرهابه حتى يخاف الافضاء بسبب الاعتراف ، وأن نذكر « ثانيا » أن العقول تختلف فى قوة المعارضة وسرعة الجواب فيتلجلج المسؤل وهو برىء ويخشى أن يحسب المحقق هذا التلجلج دليلا على اتهامه ، فيضطرب ويزداد اضطرابه كلما ألح عليه هذا الخاطر ولمح من المحقق ما يؤيد وهمه ، وربما أعانت سرعة الخاطر إنسانا آخر على تحضير الجواب المناسب دون أن يظهر عليه من الاضطراب ما يلفت النظر أو يريب

وأن نذكر « ثالثا » أن إتقان أساليب التحقيق لا بد أن
بله من الطرف الآخر اتقان أساليب الاجرام وتخصص المجرمين
دراسة أساليب الشرطة وأساليب المحققين والاستعداد لهـا
يحيطها ويتغلب عليهـا . فتنشأ عصابات المجرمين المعروفين
بالمحترفين » والاخصائيين، ولا يبقى من المتهمين من تفلح معهم
ك الأساليب غير الافراد المعروفين « بالهواة » لأنهم
يجيدون الحرفة ولا يتعاونون فيما بينهم على اتقانها

فلا ينبغي أن ننسى أن الاساليب العلمية لن تستأصل الجريمة
ن الدنيا ولـكنها على كل ذلك لازمة ونافعة، لانها وسيلة لا يصح
عمالها ولا محيص لنا من استخدام كل وسيلة مستطاعة في هذه
لحرب التي بقيت منذ أوائل عهد الناس بالاجتماع، وستبقى على
ازى من أحوالنا المعهودة الى زمن لا تعرف له نهاية

بعض الاصلاح

فى انجلترا يقسمون المسجونين لآجال بعيدة الى أقسام : يمتد القسم الأول الى ثمانية عشر شهراً والثانى الى سنتين ونصف سنة ، والثالث أو القسم المخصوص ينتقل اليه السجين بعد أربع سنوات ، ومزية هذا القسم أن يعطى فيه السجين بنسا كل يوم ويزاد كل سنة خمسى بنس الى أن تكمل الأجرة اليومية بنسين ولا يزاد عليها بعد ذلك ، ويباح لسجين القسم المخصوص أن يشترى التبغ والحلوى من أجرته اليومية ، وأن يشترى صحيفة أسبوعية وما شاء من الكتب المباحة سواء من أجرته أو من هدايا أصحابه

ومزية القسم الثانى الذى هو دون القسم المخصوص بعض التحسين فى الملابس والفراش والتوسعة فى الرياضة والألعاب وشراء الصحف وما اليها

ويتوقف الكثير من هذه المزايا على احراز درجات السلوك وهى ثمانى درجات لكل يوم ، ومن استوفى المقدار المطلوب من هذه الدرجات أسقط عنه ربع المدة واستحق التوصية عليه بعد خروجه لتدبير عمل له ومورد معيشة

وفى السجون مكتبات تبلغ عدة الكتب فى بعضها اثنى عشر الف مجلد ، وتتلى على السجناء أخبار العالم مرة كل أسبوع ملخصة

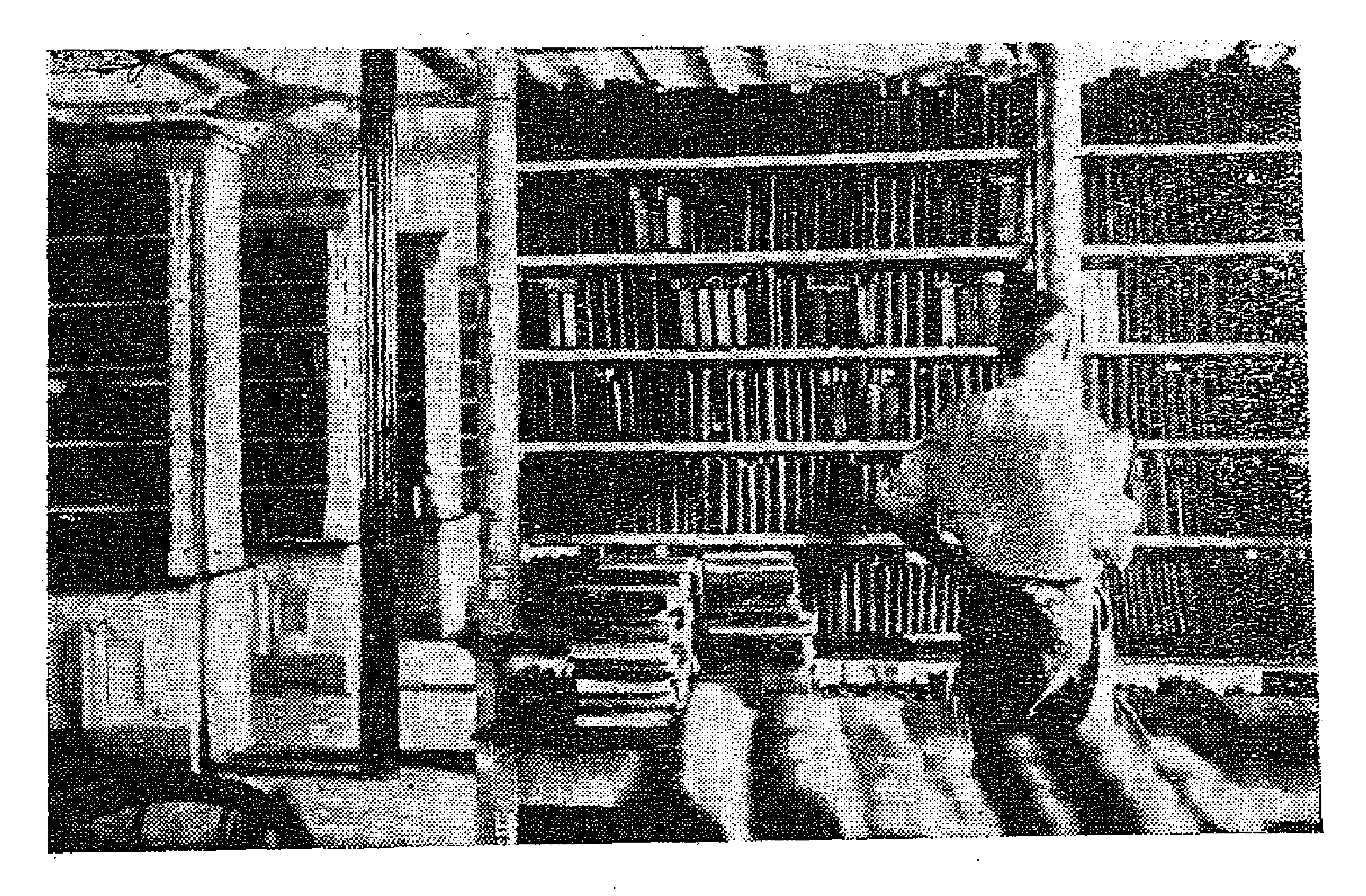
من الصحف السيارة ، ويباح لهم سماع الاذاعة وأغانى «الحاكى».
ولعب الشطرنج وبعض الألعاب الرياضــــية ، وتلقى عليهم
المحاضرات فى موضوعات شتى يختارها مدير السجن أو قسيسه ،
ويسمح لهم بالتمثيل وتنظيم الحفلات فى أيام الأعياد ، وطعامهم
على العموم خير فى مادته وفى تنويعه من الطعام المسموح به
للسجناء المصريين ، أما العقوبات فهى كما فى مصر الجلد والسجن
المنفرد وغذاء الخبز والماء.

ويؤخذ من رواية هـانس فلادا (١) الألمانى ومن بعض
الرسائل الأوربية أن حالة السجون فى أوربا تقرب من هذه الحالة
وتشبهها كل المشابهة أو بعض المشابهة بغير اختلاف فى الجوهر،
الا الروسيا فان للسجن فيهـا نظاما مفرطا فى التوسعة والترفية
نعتمد فى وصفه على كتاب السير جيمس برفس ستوارت
« رحلة طبيب فى روسيا الشيوعية » (٢) إذ يقول من كلامه على
مدينة موسكو : »

« كل حجرة على بابها مذيع ، والفراش نظيف ومريح ،

(1) Who once eats out of the Tin Bowl by Hans Fall ada.

(2) A physician's tour In Soviet Russia, by sir James Purves — Stewart



مكتبة في بعض سجون امريكا

والنوافذ المشبكة بقضبان الحديد واسعة ، والأبواب تترك مفتوحة إلا ما بين الساعة الواحدة والساعة السادسة بحيث يتيسر للسجناء أن يتزاوروا كما يحبون . وقد مررنا بحجرة مغلقة أغلقها السجين باختياره فلما شعر بنا فتح الباب ودعانا إلى زيارته وأخبرنا أنه حكم عليه بالسجن عشر سنوات لاختلاسه واحدا وسبعين الف روبل من مصنع سكر ، وإنه مفرج عنه ذلك اليوم وهو مغتبط متهلل بعد أن قضى فى السجن ست سنوات وعشرة أشهر وسبعة وخمسين يوماً وعوفى من قضاء المدة الباقية لاجتهاده وحسن سلوكه ، وقال لنا انه وجد وظيفة كتابية فى مصلحة التجارة بسبعمائة روبل مشاهرة وسيبدأ العمل فيها على أثر خروجه

« ويأكل السجناء فى حجراتهم ريثما تبنى فى السجن حجرة واسعة للمائدة العامة ، ويطلب من كل سجين أن يعمل ثمانى ساعات كل يوم تتخللها ساعة للطعام ، وينقسم السجناء إلى قسمين فمن كان منهم أمياً يجهل الكتابة وجب أن يتعلمها على يد زملاء له من الذين كانوا مشتغلين بالتدريس خارج السجون ، أما المتعلمون فيلحقون ببعض مصانع السجن ليمارسوا صناعات يدوية معظمها من قبيل الغزل والنسج والخياطة والزركشة ، ولهم على ذلك مرتب يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين روبلا مشاهرة

تودع بأسمائهم فى خزانة السجن وتسلم إليهم يوم الافراج ، ويسمح للسجين أن ينفق حصة من مرتبه فى شراء الملابس والتبغ واللوازم ما عدا المشروبات الروحية فهى محذورة ، وله بعد قضاء سنة يوم أجازة كل أسبوع يقضيه فى بيته ، وتزاد الأجازة إلى اسبوعين خلال السنوات التالية ، أما إذا كان السجين فلاحا فله أن يقضى ثلاثة أشهر فى قريته أثناء الحصاد ، وللاصدقاء والأقارب أن يزوروا كل سجين مرة كل عشرة أيام أثناء السنة الأولى ومرة كل خمسة أيام فيما يلى ذلك من السنين ، وليس للسجن كسوة خاصة ولا سلاح فى أيدى الحراس الداخليين لأنهم يختارون من بين السجناء وتعقد لهم لجنة لمعاقبة زملائهم الذين يخالفون النظام ، وإنما يقصر حمل السلاح على الحراس الخارجيين ، بل قد تشرف اللجنة على تصرفات موظفى السجن وتقترح التعديل فى بعض النظم المرسومة

« وهناك جماعة للتمثيل وأخرى للشطرنج وقسم للتصوير وقسم للموسيقى وقسم لهندسة الآلات ، ومكتبة فيها ستة آلاف مجلد تشتمل على التاريخ والصناعة والأدب والروايات ويشرف عليها كتبى رقيق فى الثالثة والعشرين يقضى سنتين لاقترافه جريمة شهوية يخجل من التحدث عنها إلا بانها تقع تحت طائلة المادة

١٨٢ من قانون العقوبات. وقد حولوا كنيسة السجن الى مسرح جميل وأزالوا الحواجز التى كانت تفصل كل سجين عن زميله عند شهود العظة الدينية

« وكل يوم من أيام العمل يحسن السجين أداءه يعفيه من يوم ونصف من أيام العقوبة . وأيام العمل خمسة والسادس للراحة ، ومن يقصر أو يتكاسل يعاقبه زملاؤه بالحرمان من الاجازات والزيارات والمسليات وبعض المزايا الأخرى

« وفى السجن حمامات معتادة وحمامات تركية ساخنة ، وقد شاهدت حجرة الحلاق يغشاها عدة سجناء للتزيين والتجميل ، والأجرة عشرون كوبكا لحلاقة الذقن وثلاثون لقص الشعر وخمسة وأربعون للتدليك وثلاثون للتعطير وستون لحلق الرأس كله . أما قص الشعر كما يقص عادة فى السجون فهو بالمجان

« وفى السجن صيدلية ومستشفى يديره طبيب « غير سجين » وممرضة ويشرف على مطبخ المستشفى شيخ طريف ذو عوارض وشوارب طوال يتلهى بلفها على أذنيه ! وعقوبته عشر سنوات لقتله امرأته غيرة عليها ! وطبيب الاسنان يقيم فى الحجرة التى كانت من قبل حجرة سوداء وهى الآن مضاءة واسعة النوافذ ، ومن هنا وهناك فى الابهاء العامة والحجرات عمدان الدعاية

وصحف مصورة يكتبها السجناء .... » الخ الخ

هذا نظام السجن فى موسكو كما وصفه الطبيب الانجليزى الكبير، ولم يقل لنا ماهى نتائجه فى الحياة العامة ولكنه روى على اثر هذا الوصف ان السجناء لا يحاولون الفرار ولا ينصرفون من السجن فى اجازة أو زيارة إلا عادوا اليه . وهذا طبيعى لا غرابة فيه بعد ذلك الوصف ، وفى وسعنا أن نتخيله بغير مشاهدة ولا أخبار

نقول ان هذا النظام مفرط فى التوسعة والترفيه لأننا نعتقد أن ضرره أعظم من نفعه ، إذ المقصود من الرحمة بالسجين ان نجتنب الايلام الذى لاضرورة له ولا منفعة فيه ، وليس المقصود أن نحول السجن الى متعة يشتهيها بعض الطلقاء ويؤثرونها على حياة البيت ومتاعب الحرية

ونتيجة هذه التوسعة على السجناء فى الروسيا غير واضحة فى الاحصاءات الرسمية ولا فى الكتابات التى اطلعنا عليها . ولكننا نستطيع أن نقيسها على ما حدث فى الهند وهى بلاد تشبه الروسيا وتشبه مصر فى طبقة المعيشة اذا صرفنا النظر عن نظام الحكم وعن الرخاء الذى تمتاز به البلاد المصرية . قال مستر رايت Wright الذى كان مفتشاً للشرطة فى أقاليم الهند الوسطى :

« أذكر فى بعض أيام الشدة والكساد التى ندر فيها الغيث وجاع الفلاحون انه رؤى من المصلحة أن يشار على القضاة باصدار أحكام الجلد على صغار السراق بدلا من إرسالهم الى السجون ... فنجع العلاج وأتى بالنتيجة المطلوبة ، ثم تبين ان جرائم السلب والسطو التى هى أعنف من السرقة الصغيرة تكفل لمقترفيها قضاء العقوبة فى السجون فاخذت هذه الجرائم فى الزيادة السريعة ، وأذكر فى الأيام التى هى أروج من ذلك وأرغد ان أناسا تعمدوا السرقة ليستريحوا فى أكناف السجون. . . »

وقد رأيت فى سجن مصر من أعترف لى بمثل ذلك ، ورأيت سجينا آخر يتخفى ولا يجيب نداء الحارس الذى يدعو المطلقين كل يوم ، لانه يرجو أن ينساه الحراس ويظل فى السجن اياما أخرى بغير عقوبة !

* * *

أن « نسبة » السجناء فى مصر تلفت النظر بالقياس الى كثير من الامم فى أوربا واسيا وأفريقيا . ويؤخذ من الاحصاء التقريبى المقارن الذى جمعته لجنة « عصبة الامم » الموكلة بشؤن الجزاء والمسائل الجنائية ونشرته قبل بضعة أشهر أن عدد السجناء فى مصر يبلغ مائة وستة وأربعين من كل مائة الف من جملة السكان فى حين أن هذه النسبة تنقص الى نحو تسعة عشر فى حكومة

يرلندة الحرة ، وسبعة عشر فى فلسطين، وخمسة وستين فى زنجبار وستة وخمسين فى اليابان ، وسبعة وخمسين فى استراليا ، وهى تزيد فى بعض الامم حتى تبلغ ثلثمائة وثلاثة وثمانين فى « سيرة ليون » ومائتن وخمسة وسبعين فى استونيا ، ومائتين واثنين وثلاثين فى حكومة اتحاد افريقية الجنوبية ، وقريبا من هــــذه النسبة فى بلاد شتى من أمم الحضارة . ولـكن النسبة فى مصر تلفت النظر مع هذا لان الامة المصرية لم تشتهر بحب الاجرام كما اشتهرت بعض الامم التى لم تاْلف الحضارة والنظـام ، فهل لايثار معيشة السجن على معيشة البيت دخل فى زيادة عـدد السجناء ولو بين طبقة الاراذل والخلعاء ؟

يجوز هذا فى نطاق محدود وحالات قليلة . ولـكن ازدياد النسبة عندنا مرجعه فيما نظن الى سبب آخر غير ايثار معيشة السجن على معيشة البيت ،وهذا السبب هو تعاقب عصور الظلم والعسف والاستبداد حتى أصبح ضحية القانون وطريدة الحاكم موضع العطف لا موضع الازدراء ، وأصبح دخول السجن لا يعيب صاحبه كما يعيبه فى عهود الحرية والانصاف ، وسيزول هـذا السبب رويدا رويدا ويعجل به الزوال كلما فهم الجهلاء والمنبوذون أن الخروج على الشريعة عداوة للمجتمع وليست عداوة للحاكم

الظالم والحكومة الطاغية ، وسبيل ذلك هو التعليم والتربية الخلقية واصلاح المعيشة الاجتماعية لا تصعيب معيشة السجون وتعمد القسوة على السجناء .

ونحن كما أسلفنا فى حل من كل تحسين ينقذ السجناء من الايلام الذى لاضرورة له والتنغيص الذى لا نفع فيه ، ولا يغلو الى الحد الذى يغرى بالاجرام والاستخفاف بالعقوبة .

ومن هذا التحسين فرض الكتابة والقراءة على الأميين وتدريب الصناع على صناعاتهم حسب الاصول الحديثة وتعليم من لا يحسنون الصناعات حرفة يبتغون بها الرزق والمعيشة الشريفة ، وتخصيص درجات لمن يجتهدون فى تعلم القراءة والكتابة أو فى تعلم الصناعات واتقانها تحسب لهم فى نقص مدة العقوبة وتوفير وسائل الراحة ، وتخول من يحصل عليها عند خروجه من السجن أن تضمنه الحكومة فى عمل أو وظيفة ولو جازفت ببعض المال لتعويض الخسائر ووفاء الضمانات ، فقد ثبت أن البلاء الذى يعانيه السجين بعد السجن أشد وأنكى من بلائه بالاعتقال وضياع الحرية . لأن الناس ينفرون منه ويسيئون الظن به ولا يأتمنونه على سعى ولا تجارة ، فاذا امنوا عاقبة السرقة والاختلاس اقدموا على استخدامه وانتفعوا بكفاءته .

ولم يحذروا غدرات طبعه ، واستطاع كثير من الموصومين ان يستعيدوا حظهم من حياة العمل النافع والمكانة الاجتماعية

ولا ضير من اباحة التدخين والأطعمة المنوعة والملابس الخارجية على أن يكون ذلك كله مزية يكافأبها المستقيم ويحرمها المقصر والمسيء ، بل هذه المزايا خليقة ان توفر للحراس والرقباء اسباب العقوبة الزاجرة المعقولة وهى حرمان السجين بعض المزايا المشتهاة اذا اساء وخالف النظام ، بدلا من معاقبته بالجلد والمشقة والاعنات.

فقد رأيت كثيراً من السجناء يباهون بالقدرة على احتمال الجلد والمشقة ولم أر سجينا واحدا يستخف بأكل الخبز القفار ولزوم العزلة والحبس عن الرياضة ، فاذا كثرت المزايا كثرت الرغبـــة فيها والاجتهاد فى تحصيلها وكثرت وسائل العقوبة الأدبية التى تليق ببنى الانسان ، وقلت الحـاجة الى العقوبات البهيمية التى ترهق البدن ولا تصلح النفس ، بل تعودها الفخر بما هو أدعى الى المهانة

والسجناء فى سجون سيبريا وجزيرة الشيطان وأمثالها من سجون أمريكا الشمالية والجنوبية ينامون على أسرة خشبية ، ولا ينامون على الأرض كما ينام جميع السجناء المصريين ماعدا

المرضى والمحكوم عليهم فى المحاكم المختلطة . فلماذا يجبر السجين المصرى على الرقاد فوق « البرش » والأسفلت وهو ولا شك فراش لا تحتمله بنية الهزيل المهدد بالأمراض ولا تؤمن غوائله فى الشتاء ؟ ان الرقاد على لوح من الخشب ليس من الترف فى شيء ، ولكنه أصح وآمن وأدنى الى الكرامة والتهذيب . . . فما نحن بحاجة الى تعليم الفقراء المصريين فضيلة النوم على التراب !

هذه التحسينات كلها ميسورة لمصلحة السجون المصرية ، ولها أن تظل على يقين أنها تستطيع توفيرها جميعا ثم يبقى السجن بعد ذلك سجنا يخيف من يخاف ويهذب من يتهذب ، بل يبقى سجنا ومدرسة ومستشفى ! وهى الأماكن الثلاثة التى تعودنا أن نهرب منها ونحن صغار ونحن كبار !!

فهرس

تصحيحات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٦	٥	وقت	وقد
٤٥	٤	yaou	you
٦٩	١٣	الطبقة	الطبيعة
٧٣	١	تسير	تسبر
١٠٩	٤	الصورة	الصور
١٤٦	١٤	يلز	نيلز
٢٠٠	١٧	لحسسبنا	لحسبنا
٢٠١	١	التدير	التدبر
٢٠٤	١٣	المعارضة	العارضة
٢٠٥	٤	يحيطها	يحبطها

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن
		مليم
الجمعة اليتيمة	للدكتور سعيد عبده	٦٠
باب القمر	للأستاذ ابراهيم رمزى	١٥٠
محمد	» » »	٢٥٠
المطبخ الشرقى	للآنسة بسيمة زكى	٢٠٠
جهاد الأمم فى سبيل الدستور	» محمد شوكت التونى	١٠٠
الأمراض التناسليه	» يوسف عبد العزيز حموده	٤٥٠
رعاية الطفل	» أحمد خليل عبد الخالق	٢٥٠
كليلة ودمنة بالصور	للمرحوم محمد عبد الرحيم ترة	٥٠
أصول المحاسبة وامساك الدفاتر	محمد عبد الرحمن حافظ	٣٠٠
الانسان والبيئة	لويس اسكندر	٧٠
فلسفة اللذة والألم	اسماعيل مظهر	١٥٠
مصر فى قيصرية الاسكندر المقدونى	اسماعيل مظهر	٦٠
الحب الأول قيصر وكيلوباترة	اسماعيل مظهر	
مصر تحت ظلال الفراعنة	للاستاذ صابر	١٥٠
سعد زغلول	للأستاذ عباس محمود العقاد	٢٠٠
شعراء مصر	» »	٦٠
اقتصاديات النقل	عبد العزيز مهنا	٤٠٠


Bibliotheca Alexandrina
03645576